

تأليف
محمد عادل القلقيلي
الهندسة الإلهية
في سورة الكهف
دار الفيحاء
دار عمار


الهندسة الإلهية
في سورة الكهف

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار عمار عمّان - قرب الجامع الحسيني - هاتف ٦٥٢٤٣٧ ص.ب ٩٢١٦٩١

دار الفيحاء عمّان - جبل اللويبدة - هاتف ٦٢١٢١١ ص.ب ١٨٤٢٠٥

محمد عادل القليقيلي

الهندسة الإلهية في سورة الكهف

دار عمار
عمان - الأردن

دار الفيحاء
عمان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا الكتاب:

إلى روح والدي الشيخ عبدالله القلقيلي

الذي قبست من بعض علمه، واستظللت بهدي حكمته.

كما أهديه الى الاجيال الصاعدة، التي تربت عقولها على العلم الحديث، وما فيه من ترتيب ونظام، لعلها تتبيّن أن كتاب الله قد سبق هذا العلم في النظام والترتيب وعمق الفكر، في مواضيع سوره وأسلوبها وشكلها.

كما أهديه إلى كل من شجعني على المضي في إظهار إعجاز القرآن الكريم، عن طريق التدبّر في سوره وآياته.

المــــؤلف

المُقدِمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وأصحابه.

وبعد فإن القرآن الكريم كتاب الله الخالد، ومعجزة الإسلام الدائمة، التي لا تنقطع بركاتها، ولا يتوقف ظهور آياتها. قال تعالى: [أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً] (سورة النساء ٨٢)

فالتفكر في آيات القرآن، وتدبّر سوره، مما يكشف بعض جوانب الاعجاز في هذا الكتاب الإلهي، ويبيّن أن لكل سورة من سوره «هندسة إلهية» خاصة، تربط بين أجزائها ربطاً عميقاً محكماً، مهما بدا ظاهرها خالياً من الترابط.

ولقد كشف الله بنفسه عن وجود «هندسة إلهية» في سورة الفاتحة، وذلك في الحديث القدسي الذي رواه مسلم: عن أبي هريرة قال: «سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد «الحمد لله رب العالمين» قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال «الرحمن الرحيم»، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال «مالك يوم الدين»، قال: مجّدني عبدي. وإذا قال «إياك نعبد وإياك نستعين»، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» «مشكاة المصابيح ٨٢٣».

وهكذا جعل الله الفاتحة نصفين، نصفاً لحمد الله تعالى وتمجيده، ونصفاً لما يطلبه العبد من ربّه. وبحسب هذه الهندسة، جعل الله في وسط السورة وقلبها آية «اياك نعبد وإياك نستعين» التي هي بدورها نصفان، احدهما لتمجيد الله، والآخر للعبد وسؤاله.

وسورة الكهف من روائع سور القرآن الكريم. وقد وردت أحاديث شريفة تبيّن فضلها. فقد جاء في الصحيحين حديث مفاده: «قرأ رجل الكهف وفي الدار دابّــة، فجعلت تنفر، فنظر، فإذا ضبابة أو سحابة غشيته، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو نزّلتْ للقرآن»، كما أورد ابن كثير أيضاً حديثاً رواه أحمد جاء فيه: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، كانت له نوراً من قدمه الى رأسه، ومن قرأها كلها، كانت له نوراً ما بين السماء والأرض».

واذا تدبــرنــا هذه الســورة الكريمة، وجدناها ذات هندسة إلهية خاصة، تشبه في نسقها سورة الفاتحة، فللفاتحة قلب هو آية «إياك نعبد وإياك نستعين» التي نصفها الأول «إياك نعبد» تمجيد لله تعالى، فهو ينعكس على الآيات التي قبله، ونصفها الثاني «وإياك نستعين» خاص بما يطلبه العبد من ربه لنفسه، فهو ينعكس على ما بعده من آيات السورة.

وسورة الكهف تشبه سورة الفاتحة في أن لها «قلباً» هو قصة آدم وإبليس، تسبقه قصتان رئيسيتان هما قصة أصحاب الكهف وقصة صاحب الجنتين، وتتلوه قصتان رئيسيتان أخريان، هما قصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين.

وقد وضعت قصة آدم، قلب السورة، في منتصف القصص، بل في منتصف السورة إشعاراً بأنها تحوي العبرة الأساسية في السورة،

وبــأن مغــزاهــا ينعكس على القصّتين اللتين قبلها، كما ينعكس على القصتين اللتين تتلوانها. وليس هنا محل تفصيل ذلك، وإنما أكتفي بالقول بأن قصة آدم هي قصة ابتلاء الله لآدم ابتلائين: ابتلاء شكر وابتلاء صبر. فقد أغدق عليه نعمة العلم «وعلّم آدم الأسماء كلها»، كما أغدق عليه نعمة الجنة. وهذا امتحان له: فهل يشكر ربه على هاتين النعمتين؟

وابتــلاه الله ابتــلاء صبر، فنهاه عن أكل الشجرة المحرمة، وهذا امتحان آخر له، فهل يصبر عن أكلها؟

لقد أخفق آدم صلى الله عليه وسلم في ابتلاء الشكر وابتلاء الصبر جميعاً، اذ أكل من الشجرة عاصياً ربه، والعصيان يناقض الشكر، كما أن الأكل من الشجرة خضوع للشهوة مما يناقض الصبر وقوة الارادة.

والآن، كيف تنعكس هذه المعاني التي في قصة آدم على القصص الأخرى التي في السورة؟

إذا تأملنــا القصتين اللتين تسبقان قصة آدم، وجدناهما قصتي ابتلاء صبر وابتلاء شكر: فقصة أصحاب الكهف قصة فتية ابتلاهم الله ابتلاء صبر، فنجحوا في الامتحان، وصبروا على قسوة العيش في الكهف الصخــري المظلم في سبيل الحفاظ على إيمانهم بالله. وقصة صاحب الجنتين قصة رجل آتاه الله رزقاً كثيراً وافراً فأغدق عليه من الثمرات والماء، لينظر هل يشكر ربه عليها، فهو ابتلاء شكر. لكن الرجل أخفق في امتحان الشكر.

والقصتان اللتان تتلوان قصة آدم، هما أيضاً قصّتا ابتلاء صبر وابتلاء شكر وبنفس الترتيب: فقصة موسى والخضر قصة ابتلاء لصبر موسى صلى الله عليه وسلم على تصرفات الخضر (ع) المخالفة ظاهرياً للشريعة، وقد أخفق موسى في هذا الامتحان، فلم يصبر.

وقصة ذي القرنين قصة ابتلاء شكر: فقد آتاه الله ملك الدنيا بأسرها من مغربها إلى مشرقها، فشكر الله على ذلك بإقامة العدل ومنع الظلم في الأرض.

أليس مدهشاً هذا الترتيب والترابط بين قصة آدم والقصص الأخرى؟ قصة آدم قصة ابتلاء صبر وشكر، تسبقها قصتا ابتلاء صبر وشكر، وتتلوها قصتا ابتلاء صبروشكر أيضاً.؟ أليست هذه هندسة واضحة؟

ومن هنا سَرَتْ فكرة «الابتلاء» أو الامتحان في سورة الكهف بأجمعها، كما سنرى إن شاء الله.

ومن ناحية أخرى تترابط قصة آدم بما قبلها وما بعدها في موضوع آخر، هو طبيعة البشر الخطاءة، التي ـ بحكمة الله ـ لم يفلت منها أحد حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد صدرت منهم أخطاء رمزية طفيفة، لتؤكد أنهم بشر وعباد لله، وليسوا آلهة ولا أبناء الله، وبذلك تردّ رداً واضحاً على الذين «قالوا اتخذ الله ولدا» كما ورد في مطلع السورة،

ثم تريد السورة أن تقرر أن البشر جميعاً ضعفاء محاطون بالمغريات والشهوات والأخطار العظيمة التي قد تقذف بهم في لجج الشقاء الأبدي، وترشد السورة الناس إلى أنّ عليهم أن لا يغتروا بقوتهم ولا بعقلهم ولا بعلمهم، بل عليهم، إن أرادوا الخلاص من الشقاء، أن يلجؤوا إلى الله وحده، فهو المأوى الحقيقي الأعظم والوحيد في الدنيا والآخرة: «ولن تجد من دونه ملتحداً» ـ أي ملجأ.

ومن هنا سرت في السورة كلها فكرة «الملجأ» أو «المأوى» التي سيأتي تفصيلها إن شاء الله.

ولما كان المأوى حاجزاً يحجب الشر والخطر عن الملتجيء إليه، فقد انتشرت أيضا في السورة فكرة «الحواجز» أو «الحجب» أو «السِّتر» أو «الغطاء» المتقاربة المعاني.

كذلك فإن من يلجأ الى الله يجد في كنفه الرحمة والعلم والصبر، كما يجد عصمة من النقمة والجهل والظلام والجزع، لذلك جاءت هذه المعاني وغيرها أفكاراً سارية في السورة.

فكأن السورة نسيج متلاحم قد تشابكت فيه خيوط المأوى والحجاب والرحمة والعلم والنور والصبر وغيرها، وكأنها خيوط من نور مختلفة الألوان، تتشابك تشابكاً رائعاً، تبرز السورة معه في صورة متناسقة زاهية.

وكأن السورة تقول للانسان: أيها الانسان، إنك كأبيك آدم، ضعيف خطّاء، فاعتبر بما حدث له في لحظة من لحظات ضعفه، فلم ينجح في امتحان الشكر ولا في امتحان الصبر، لأنه استبدل بالمأوى الإلهي مأوى الشيطان وإغراءاته، ومأوى الشهوة ودواعيها، فنسي أمر ربه، ووقع في الخطأ الجسيم.

وإنك اذا لجأت الى المأوى الإلهي في الدنيا، كانت الجنة مأوى لك في الآخرة. وإن ابتعدت عن المأوى الإلهي في الدنيا، كانت النار مأواك في الآخرة.

وكأن السورة تريد أن تقول للمسلمين: أيها المسلمون، لا تخطئوا كما أخطأت الأمم من قبلكم، فزعمت أن عيسى صلى الله عليه وسلم ابن الله، فلا تتوهموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم إله أو ابن إله، وانما هو عبدالله، وهو بشر مثلكم، شأنه في ذلك شأن الأنبياء والرسل الذين هم أكمل البشر وأكرمهم على الله تعالى.

هذا، وسيجـد القـارىء الكريم ـ إن شاء الله ـ أولاً نص سورة الكهف، يتلوه عرض لأهم معانيها، ثم دراسة شاملة للهندسة الإلهية الرائعة التي تتجلى في أرجاء السورة المشرقة العطرة، مبيّنةً تلاحمها وتناسقها المعجز الذي لا يمكن أن يكون من صنع بشر أميّ لم تسبق له دراسة ولا كتابة ولا قراءة، وإنما هو قطعاً من صنع الله الذي أتقن كل شيء.

وبـالله وحـده أستعـين، وإليه وحده ألجأ، أسترحمه وأستغفره، والحمد لله رب العالمين.

محمد عادل القلقيلي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾
مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى
ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟

أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ
لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ

تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا
﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ
ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا

هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا

﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى
وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ
عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ

فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى
حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ

سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ
أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ
أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى
لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟
لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

صدق الله العظيم

تنقسم السورة الكريمة أقساماً عدة، لا بد من شرحها شرحاً موجزاً قبل أن نجول فيها باحثين عن مواطن الترابط الوثيق فيما بين معانيها. وهذه الأقسام هي:

١ ـ **المقدمة**: وهي تبدأ بحمد الله تعالى على إنزاله قرآنه الكريم، منذراً ومبشراً للناس كافة، ومنذراً بصورة خاصة الذين زعموا أن لله ولداً زوراً وجهلاً، مقلّدين بذلك آباءهم تقليداً أعمى، ثم تطلب السورة الى الرسول صلى الله عليه وسلم ألّا يغالي في الحزن على مصير الكفار الذين لم يؤمنوا به، مبيّنة أن الله يبتلي الناس بزينة الحياة الدنيا الفانية.

٢ ـ **قصة اصحاب الكهف**: الذين لجؤوا إلى الكهف هرباً من أحد الحكام الذي أراد أن يكرههم على ترك عبادة الله، والقيام بعبادة أوثانه، وتعرض السورة على لسان هؤلاء الفتية عمق إيمانهم بالله الواحد، وبغضهم الشديد للآلهة الباطلة وصدق التجائهم الى الله وحده.

ويشاء الله أن يوقعهم في النوم مدة تزيد على ثلاثمئة سنة. وتذكر السورة تفاصيل حيّة عن أوضاعهم وهم نائمون: فالشمس تميل عنهم وتبتعد حين شروقها وحين غروبها، وذلك لكي لا تؤدي حرارتها الى ايقاظهم من سباتهم، ومما يزيد حر الشمس بعداً عنهم أنهم في فجوة منخفضة من الكهف. ومنظرهم يثير الهلع في النفوس، مما يبعد الناس عنهم فلا يوقظونهم. ويحسبهم الناظر إليهم أيقاظاً رغم نومهم.

ثم يشاء الله أن يبعثهم من نومهم بعد أن مات الحاكم الذي اضطهدهم، وظهرت أجيال جديدة مؤمنة بالله وحده، لكنّ الفتية لم

يعلموا طبعاً بما حدث، ظانّين أنهم لم يناموا سوى يوم أو بعض يوم.. ويشعر الفتية بالجوع الشديد بعد هذا النوم الطويل، فيرسلون أحدهم إلى المدينة المجاورة ليشتري لهم طعاماً بنقود كانت لديهم، مضروبة في زمن الحاكم الوثني. ويعجب أهل المدينة لهذه النقود التي لا يعرفونها، ويكتشفون حقيقة الفتية المؤمنين ومكانهم، لكن الله يميت هؤلاء الفتية فوراً، رحمة بهم أن يعيشوا في عصر غير عصرهم، يقاسون فيه من تباين العادات والعقول، ومن ضعف أجسامهم الشديد بعد أن أمضوا في حياتهم السنين الطوال.

والعبرة في هذه القصة أن الله قادر على أن يبعث الموتى يوم القيامة، كما بعث هؤلاء الفتية بعد هذا النوم الطويل الذي يشبه الموت.

ثم تذكر السورة اختلاف الناس في عددهم، موصيةً الرسول أن لا يلقي بالاً إلى هذه القضية التافهة، مؤكدةً أنه لا يعلم عددهم ولا مدّة لبثهم في الكهف إلا الله: فالله وحده يعلم أحداث الماضي، كما أنه وحده يعلم أحداث المستقبل، ولذلك أوصى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن لا يقول لشيءٍ «إني فاعل ذلك غداً، إلّا أن يشاء الله»، ويلجأ دائما إلى ذكر الله وإلى طلب الهدى منه وحده وإلى تلاوة كتابه، فلا ملجأ لأحد إلا الله.

٣ ـ **قصة سبب نزول السورة**: جاء في تفسير ابن كثير أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الأحبار لهما: سلوه عن ثلاثة أمور، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإلّا فرجل متقوّل (أي كذّاب): سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول،

ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب: وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه.

فسألت قريش الرسول عن ذلك، فقال لهم: «أخبركم غداً عما سألتم عنه»، ولم يقل «إن شاء الله». فانصرفوا عنه. ومكث الرسول خمس عشرة ليلة لم يأته الوحي فيها، وقال أهل مكة إن محمداً صلى الله عليه وسلم وعدهم بإخبارهم عما سألوه غداً، ولم يوف بوعده. فحزن الرسول لذلك. ثم أتاه الوحي بسورة الكهف، وفيها قصة ما سألته قريش عنه، وفيها تعليم للرسول ولأمته أن لا يقول لشيء إني فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله.

٤ ـ قصة فقراء المؤمنين وأغنياء المشركين: جاء في التفاسير أن أشراف قريش وأغنياءهم طلبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحدهم، وألّا يدع فقراء أصحابه وضعفاءهم كبلال وعمار يشاركونهم في مجلسه، تكبراً عليهم وترفّعاً عن مجالستهم. فأنزل الله قوله: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيء يريدون وجهه، ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا].

فنهى الله رسوله عن إطاعة أغنياء المشركين، وأمره بالصبر على مجالسة فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم ويذكرونه دائماً. وليقل الحق غير مبالٍ بشيء: فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فإن جهنم تنتظر الكفار، فهي مأواهم. وأما المؤمنون الصالحون فمأواهم الجنة.

٥ ـ قصة صاحب الجنّتين: وهو رجل رزقه الله جنتين (بستانين) كثرت ثمارهما ومياههما، فاغترّ بذلك، ظانّاً أن هذا الرزق لن يزول عنه أبدا، وأن القيامة لن تقوم. فنهاه صاحبٌ مؤمن له عن هذا الاغترار بالنفس وبزينة الحياة الدنيا وأموالها، ناصحاً له أن يلجأ إلى الله وحده، فبيده وحده الرزق وبيده وحده الحياة والموت، وحذّره من مغبّة كفره، وبيّن له أن الله قد يُرسل الآفات على ثماره ويسلب جنّته ماءها. وحدث ذلك فعلاً فوقعت به النقمة، فندم على كفره بجزع وهلع ولم يجد ملجأ يلجأ إليه يعوِّض عنه خسارته الفادحة.

٦ ـ الدنيا والآخرة: تعقيباً على قصة صاحب الجنتين، الذي ظنّ أن دنياه ونعيمها لن ينقطعا عنه أبدا وأن القيامة لن تقوم، تبرز السورة أن الدنيا زائلة، بل سريعة الزوال، وتضرب لها مثلاً بزرع أنبته ماء المطر، ثم لم يلبث أن صار هشيماً يابساً تبدده الرياح.

ثم تقرر السورة أن جوهر زينة الحياة الدنيا هو المال والأولاد، وأن الأعمال الصالحة الباقية، خير من هذه العوارض الفانية.

وبذكر فناء الدنيا تصل السورة إلى يوم القيامة عارضةً بعض نواحي ذلك اليوم: فالجبال تسير، والأرض تظهر مستوية بارزة بعد زوال الجبال، والناس يحشرون ويعرضون على ربهم صفاً وكما خلقهم الله أول مرة، كما تعرض على كل إنسان أعماله، صغائرها وكبائرها، في كتاب خاص به.

٧ ـ قصة آدم والملائكة وإبليس: بعد أن ذكرت السورة الدنيا وغرورها، تذكر العامل الرهيب الذي يحرك هذا الغرور في قلب الانسان ويثيره، وهو إبليس وذريته. فابليس أعظم عدو للانسان، إذ هو الذى

عصى ربه ممتنعاً عن السجود لآدم تكبراً على آدم وترفعاً عليه قائلاً «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»، ونجح في إغراء آدم بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن أكلها، فأكل منها فعوقب بالإخراج من الجنة والهبوط إلى الأرض دار الشقاء.

وهنا تحذّر السورة بني آدم من اللجوء إلى إبليس وذريته، فليس من العقل أن يترك الانسان ربه الرحيم، ويلجأ إلى أعدائه الذين أعلنوا عدوانهم له منذ بدء خلقه [أفتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو؟؟ بئس للظالمين بدلا؟].

وهذه إشارة إلى أن بعض العرب كانوا يعبدون الجن. ويؤيد ذلك ما ورد في سورة سبأ: [بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون] (سبأ - ٤١).

ثم توضح السورة حقيقة هؤلاء الجن، فهم بعض مخلوقات الله، وهم لم يشاركوا الله في خلق السموات والأرض، بل لم يشهدوا خلقهما، بل لم يشهدوا خلق أنفسهم، فهم ضعاف فانون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا.

ثم توضح أن الآمال التي بناها هؤلاء البشر على هذه الآلهة من الجن وأمثالهم ستنهار يوم القيامة، حين يطلب الله الى المشركين أن يستعينوا بآلهتهم الباطلة لتنقذهم من عذاب النار، فلا تستجيب لهم، ويجدون بينهم وبينها موبقاً، أي حاجزاً هائلاً، ولا يجدون بينهم وبين النار أي حاجز يصرفهم عنها.

٨ - **مرضا بني آدم: الغرور والجدل**: الاغترار بالنفس هو المرض الأساسي الذي يصيب الانسان، فيرى نفسه أعقل العقلاء وأحكم الحكماء، فإن جاء الناس رسول يهديهم الى الله ومنهجه القويم، فإنهم

يكذبونه على أساس أنهم يعلمون أمور الحياة كلها أكثر منه. فإنهم متأكدون من أن القيامة لن تقوم أبدا، ويتحدّون رسولهم طالبين إليه أن يدعوربه أن يرسل عليهم عذابه، كما أرسله على الأمم السابقة: «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا». وهم متأكدون - لغرورهم - أن هذا العذاب لن يقع عليهم أبدا.

وهم يلجؤون الى الجدل الفارغ ليحجبوا به الحق، ثم يلجؤون الى الهزء والسخرية: [واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا].

الغرور، الجدل، الاستهزاء - هي مميزات الكافر، وهي هي سبب حجب الحقائق عن قلبه وعقله، هي السد الحاجز الذي يحول دون دخول نور الحق الى قلبه: [إنا جعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإنْ تَدْعُهُمْ الى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا].

ولولا مغفرة الله ورحمته لعجّل لهم العذاب، لكنه يمهلهم الى موعد لن يفلتوا منه أبدا.

٩ - **قصة موسى والخضر**: وهي من روائع القصص القرآني التي لم ينزل بها كتاب سماوي من قبل - هي قصة أحداث الحياة اليومية التي قد يشاهدها الانسان فتثير في نفسه العجب والتساؤلات، وأحيانا الاعتراض: لماذا تصيب المصائب الناس، حتى المؤمنين منهم، فتفجعهم بالعزيز الغالي من الأطفال الأبرياء؟ أو تصيب المساكين في أموالهم الضئيلة التي يملكونها، فتزيدهم فقراً إلى فقرهم؟

القصة الحكيمة تبيّن أن لله تعالى حكمةً في كل حدث من أحداث الدنيا، وأن هذه الحكمة الإلهية قد تظهر أحياناً، لكنها تختفي أحياناً أخرى وتغيب عن علم الانسان الضئيل المحدود. فلا يغترّنّ الانسان

بعمله. وهذا ما يربط هذه القصة بالقسم الثامن السابق الذي أبرز غرور الإنسان. ان علم الله وحكمته فوق كل علم وحكمة.

وسبب القصة ـ كما يقول ابن كثير في تفسيره ـ أن موسى صلى الله عليه وسلم قام يوماً خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: «أي الناس أعلم؟»، فقال «أنا»، ولم يردّ العلم الى الله، فعتب الله عليه اذ لم يرجع العلم إليه تعالى فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فأراد موسى ان يجتمع بهذا العبد ليتعلم منه. وهذا يشير الى تواضع الأنبياء وبراءتهم من الغرور الذي يصيب الكثير من الناس، كما تبيّن في القسم السابق.

واصطحب في سفره أحد الفتيان. وبناءً على إرشاد الله، فإنه حمل معه حوتاً ـ أي سمكة ـ زاداً له، وحيث يضيع هذا الحوت فإنه سيجد العبد الذي آتاه الله من لدنه علماً ورحمة، وهو الخضر عليه السلام.

وفعلاً اختفى الحوت في البحر عند صخرة أَوَيَا إليها. وما لبث موسى أن وجد الخضر، فأعلمه موسى بأنه يريد مصاحبته ليتعلم منه. فقال له الخضر، وهو العارف بدخائل النفوس البشرية: «إنك لن تستطيع معي صبرا؟ وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبرا؟؟»

لكن موسى أصّر على مرافقته قائلا [ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا].

ونلاحظ أن موسى صلى الله عليه وسلم تأدب هنا مع ربه فقال «إن شاء الله» فأرجع الأمر الى الله، وذلك بعد أن استفاد من عتاب الله له في أصل القصة، حين ظنّ أنه أعلم من في الأرض، ولم يرجع الأمر الى علم الله.

ثم يطلب إليه الخضر أن لا يعترض عليه، مهما رأى من أمور لا تعجبه إن اصر على مرافقته. ويرافقه موسى مدة تحدث فيها حوادث

ثلاثة، ينسٰى فيها موسى وعده للخضر، فيعترض عليه في كل حادث. ثم يشعر بخطئه أخيراً قبل الحادث الثالث فيقول للخضر: [إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدنّي عذرا؟] وبعد أن يعترض للمرة الثالثة يفترقان ولكن بعد أن يفسّر له الخضر الحقائق التي اعترض عليها.

الحادث الأول: يركب موسى والخضر سفينة يملكها مساكين يعملون في البحر، فيخرق الخضر السفينة بلا مسوغ ظاهر، مما يثير اعتراض موسى. ويبيّن له الخضر فيما بعد أنه خرق السفينة، لا ليغرق أهلها، بل لينقذ السفينة من طمع ملك ظالم يصادر كل سفينة تعجبه، وقد ثقب السفينة مُحدثاً فيها عيباً ليبطل إعجاب الملك بها فلا يصادرها ويحرم المساكين الرزق الذي يأتيهم منها.

الحادث الثاني: يلقى موسى والخضر غلاماً ظاهر البراءة، فيقتله الخضر، مما يثير إنكار موسى الشديد، فقد قتل نفساً بريئة بغير نفس، وهو ما يخالف أبسط الشرائع الإلهية والإنسانية، ويتبيّن فيما بعد أن الخضر قتل الغلام، لأنه يعلم، مما آتاه الله من العلم الخفي، أن هذا الغلام الظاهر البراءة والوداعة الآن، سيكون عندما يكبر شاباً طاغياً كافراً، يرهق أبويه المؤمنين الصالحين بطغيانه وكفره، فقتله الخضر رحمةً بوالديه، آملاً أن يبدلهما الله به غلاماً آخر بارّاً رحيماً بهما.

الحادث الثالث: يلجأ موسى والخضر الى أهل قرية ليضيِّفُوهما بعد أن جاعا، لكن أهل القرية كانوا لئاماً فأبوا أن يضيفوهما، غير أن الخضر قام بالاحسان الى أهل القرية المسيئين إليهما، فأصلح جداراً في القرية

كان على وشك الانهيار ودعمه. فاعترض عليه موسى لأنه لم يأخذ أجراً على هذا العمل الطوعي. وبيّن له الخضر فيما بعد أن هذا الجدار يخفي تحته كنزاً لغلامين يتيمين، تركه لهما أبوهما الصالح. ولو انهار الجدار وانكشف الكنز، لأخذه أقوياء القرية من اليتيمين الضعيفين، لكن الخضر دعم الجدار ليبقى الكنز مدفونا تحته، محفوظاً، حتى يصبح اليتيمان شابين قويين لا يجرؤ أحد أن يمس كنزهما بسوء، وحينئذ يأذن الله بانهيار الجدار وكشف الكنز.

وهكذا، فإن موسى صلى الله عليه وسلم يمل الشريعة الظاهرية. وأما الخضر (ع) فيمثل الحكمة الباطنية للأحداث. وقد أزاح الخضر الستار الذي كان يحجب هذه الحكمة عن أعين موسى، فكانت عبرة بالغة للناس اجمعين.

١٠ ـ قصة ذي القرنين ورحلاته: وهذه قصة رجل عظيم، آتاه الله الملك الواسع والقوة الهائلة [إنا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا] وقد استطاع أن يجوب الأرض من مشرقها إلى مغربها.

لكنه الى جانب هذه القوة، أوتي العلم والحكمة والتواضع والعدل، ونجا من الغرور الشنيع الذي يصيب أمثاله في العادة، فأرجع الأمور كلها الى الله وشريعته ورحمته، وآمن باليوم الآخر. فقصّته ترتبط بقصة صاحب الجنتين وقصة موسى في موضوع الغرور: فصاحب الجنتين رجل عادي أصابه الغرور بثماره ونهره. وأما موسى فنبي عظيم لم يغتر بعلمه، وذو القرنين ملك عظيم لم يغتر بملكه ولا بقوته.

ويلاحظ هنا التنوّع في الشخصيات: رجل عادي، ونبيّ، وملك، فالأول ـ على ضآلة شخصيته بالنسبة الى الشخصين الآخرين ـ قد أصابه الغرور. أما النبي العظيم والملك العظيم فلم تغرّهما النبوة ولا

الملك.

رحلة ذي القرنين الأولى: سار ذو القرنين بجيشه حتى وصل «مغرب الشمس» أي آخر مكان من الأرض من جهة المغرب يمكن الوصول إليه في ذلك الزمان. وهو طبعاً الشاطئ الافريقي من المحيط الأطلسي كما نعلم الآن. وعنده تشاهد الشمس وهي تغرب وراء المحيط. وأما قول الآية: «وجدها تغرب في عين حمئة»، فقد فسرت العين «الحمئة» بأنها العين الطينية، فالحمأ هو الطين الذي يغلب عليه السواد.

الاسماك ذات المصابيح: وقد تكون العين الحمئة، أي السوداء أو المظلمة، إشارة الى عمق المحيط الأطلسي الهائل الذي يؤدي الى انتشار الظلام الدامس عند قعره، فكأن الطين الذي في أسفله، لشدة الظلمة، أسود اللون. وهي حقيقة علمية اكتشفت حديثاً، إذ أن الضوء يتضاءل كلما ازداد عمق ماء المحيط، حتى يتلاشى تماماً عند قعره، حتى إن الله تعالى بحكمته ورحمته وكمال إتقانه، جعل للأسماك التي تعيش في تلك الأعماق مصابيح عجيبة في أجسامها، تتوهج لتضيء لها طريقها في تلك الظلمات..

تيار الخليج الحار: كما فُسرت العين الحمئة أيضا بالعين الحارة أو «الحامية» كما في بعض القراءات. وحينئذ قد يكون معناها ـ والله أعلم ـ أن الشمس تغرب ظاهراً في المحيط الأطلسي، الذي يحوي ما يسمى بتيار الخليج الحار، وهو تيار من المياه ينشأ عند الشاطئ الإفريقي ثم يتجه إلى شاطئ الأطلسي الغربي عند امريكا الجنوبية، ثم يتفرع فرعين، يتجه أحدهما شمالاً الى امريكا الوسطى وخليج المكسيك

والولايـات المتحـدة وكنـدا، ثم يتجه شرقاً إلى الشواطيء الاوروبية الشمالية فيدفئها، ثم يتجه الى شواطيء إسبانيا وغرب افريقيا ويعود الى حيث بدأ.

وهكـذا يجـوب هذا التيـار الساخن المحيط الأطلسي من أوله الى آخرخ، وكأنه نهر ينبع من عين حارة (حمئة).

خيار ذي القرنين: وقد وجد ذو القرنين عند مغرب الشمس قوما، واراد الله ان يمتحنه، فخيّره بين أن يعذبهم، وبين أن يحسن إليهم. فاختار الحق والعدل، ولم يغتر بوقته فيختار العسف والظلم. وقال إنه سيعاقب الظالمين، عالماً أن عذابهم الأشد سيكون يوم القيامة، فهو ذكر ليوم الحسـاب لا يغفـل عنه. وقال إنه سيحسن الى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وييسّر لهم أمورهم.

الرحلة الثانية: ثم سار ذو القرنين حتى بلغ مطلع الشمس أي مشرقها فوجدها [تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا]، وهي فيما يبدو الأراضي الصحراوية التي في شرقي آسية. ففي الصحراء لا يجد أهلها ظلالاً لأشجار تسترهم من الشمس، كما لا يجدون جبالاً يستظلون بها من حرها.

وهنـا تذكرنا السورة بأن هذا الملك القوي العظيم الذي أخضع الأرض من مشرقهـا الى مغربها، إنما هو تحت رقابة الله [كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا].

الرحلة الثالثة: ثم سار ذو القرنين حتى وصل الى مكان يقع بين جبلين كأنهمـا سدّان يعيقـان حركة الناس. ووجد بينهما قوماً أغبياء لا يعقلون، يتعـرضـون لظلم جيرانهم قوم يأجوج ومأجوج، المعروفون

بشراستهم. وقـد تكـون موجات التتر والمغول التي اكتسحت العالم المتمـدن في القرون الوسطى منهم، فقد أحرقت بغداد ودمرت معظم القرى والمدن في بلاد الشام حتى هزمهم الله على يد المماليك في معركة عين جالوت بفلسطين، فلم تقم لهم بعدها قائمة.

وقد يعودون الى سطوتهم وبأسهم قبيل يوم القيامة، كما تفيد آية في سورة الأنبياء: [حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا] (٩٧).

واستغـاث القوم الأغبياء بذي القرنين، بعد أن لمسوا منه العدل والاحسـان، طالبين إليه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً يحجب عنهم طغيانهم، عارضين عليه أجراً مقابل بنائه السدّ. لكنه أبى أن يأخذ أجراً، بل أقامه منعاً للظلم ورغبة في العمل لوجه الله تعالى.

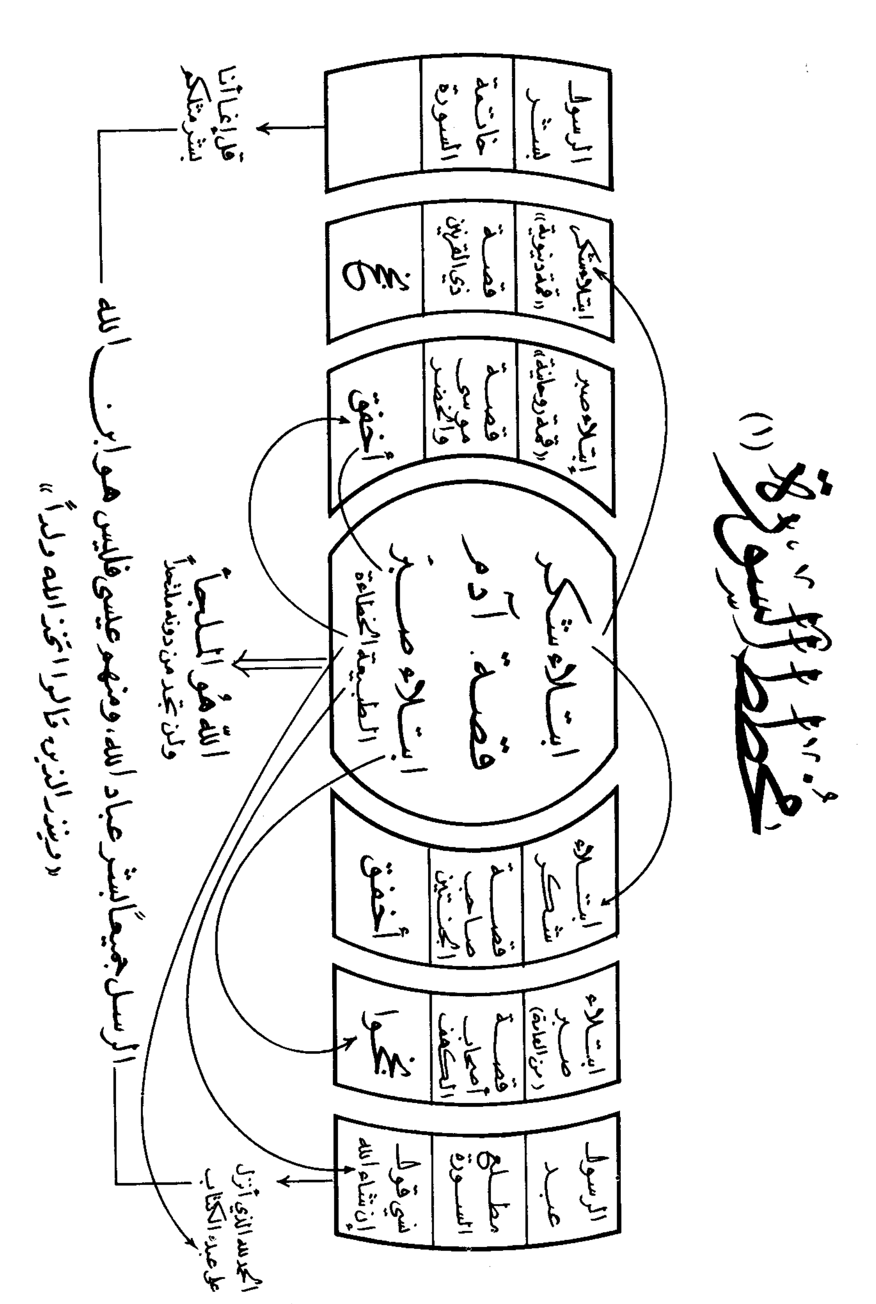
وبعد أن أقام السد العظيم، ردّ الفضل في ذلك الى رحمة الله، ولم يرجعه إلى نفسه: [قال هذا رحمة من ربي]. ولم ينس أن يربط السدّ بيوم القيامة، بل أعلن أن هذا السد سيندكّ بقدرة الله حينما يقترب ذلك اليوم.

١١ ـ **خاتمة السورة**: وهي ترتبط بالقسم السابق الذي ربط انهيار سد ذي القرنين بيوم القيامة، خاتمة الدنيا، التي عندها يموج بعض الناس في بعض، وتعرض جهنم على الكافرين، الذين أقاموا بأنفسهم حاجباً بين أعينهم وبين رؤية الحق، وحاجزاً بين آذانهم وسماع صوته، ولن تنفعهم الآلهـة ـ التي هي بعض عباد الله وخلقه ـ والتي كانوا يعبدونها، ولن تستطيع يوم القيامة أن تحول دون إدخالهم جهنم مأوى لهم ونزلا.

وتعـود السـورة فتـؤكـد غرور الكافرين، وتقتهم العمياء بقواهم العقلية، فهم يضلّون ضلالاً بعيداً ظانين أنهم بضلالهم هذا يحسنون صنعـا. وتؤكد لجوءهم الى السخرية والاستهزاء بدلًا من الخضوع للحق: «ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا». أما الفريق الآخر، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فمأواهم الجنة خالدين فيها لا يبغون عنها حولا.

ويطمئنهم الله أن رزقهم في الجنة لا ينفد أبدا [قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا] فإن الله تعالى يخلق الرزق بكلمته «كن فيكون»، وهي كلمة لا تنتهي ابدا.

وما ثمن هذا الرزق الوفير الذي لا ينفد، وما ثمن رضوان الله، إلا العمل الصالح وعبادة الله وحده لا شريك له، فالله تعالى منزّه عن الشريك سواء أكان هذا الشريك ولداً يتوهمه، أو صنماً ينحته أو شيطاناً من الجن يتولاه الانسان.



تمتاز قصة آدم بأهمية خاصة، ولا غرابة في ذلك، فهي أعرق قصة في تاريخ الإنسانية، وهي ضوء ينير للانسان طريقه، وهي مخطط للكون بأسره، يتجلى فيه موقع الإنسان بالنسبة الى غيره من الكائنات. فالله تعالى هو الكائن الحقيقي الوحيد، وسائر ما سواه من جمادات، كالسموات والأرض، ومن أحياء كالإنسان والملائكة والجن، خَلْقٌ ضِعاف، بدأ الله خلقهم، لا يقومون بأنفسهم بل يستمدون وجودهم من الله تعالى خالقهم ورازقهم.ميّز الله آدم على الملائكة، فعلمه ما لم يعلموا: [وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون] (البقرة ٣١ ـ ٣٣).

وأمر الله الملائكة والجن بالسجود لآدم، فسجد الملائكة جميعهم، وأبى كبير الجن إبليس السجود له، بل حقد عليه واغتاظ منه، مظهراً عداوته الشديدة له، وقال: [أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين].

وأسكن الله آدم الجنة وأباح له الأكل ـ هو وزوجه ـ من جميع أشجارها إلا شجرة واحدة حرّمها عليه. وتحريم هذه الشجرة عليه ابتلاء له: وهو ابتلاء ذو شقين:

أولهما ابتلاء شكر، وليس الشكر مجرد قول «أشكرك» للمنعم، بل الشكر الحقيقي تصرف وسلوك يرضيه بهما. فهل يشكر آدم ربه على نعمتي العلم والجنة، فيطيع ربه؟

وثانيهما ابتلاء صبر: فهل يصبر آدم عن الأكل من الشجرة المحرمة؟ وهل يصمد أمام إغراء الشهوة والهوى؟ وهل يصمد أمام استدراج الشيطان الذي حذّره الله منه قائلاً [إن هذا عدوّ لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى]؟

إن أبانا آدم لم يصبر عن الأكل من الشجرة، فأخفق في ابتلاء الصبر، وهو يكون بذلك قد أخفق في ابتلاء الشكر، لأنه قابل نعم ربه عليه بعصيانه

ومن ناحية أخرى فإن قصة آدم تتناول مبدأ التكليف وحمل المسؤولية وما يتبعه من عقاب وثواب. إنها تقرر مبدأ الحلال والحرام.

فأشجار الجنة حلال لآدم إلا شجرة واحدة محرمة عليه، فإن أكل منها أصابه العقاب، وهو الطرد من الجنة. ونحن الآن نعيش حياة المسؤولية هذه، وحياة الحلال والحرام ووقوع آدم في الخطأ يشير إلى أصالة الخطأ في الطبيعة البشرية.

قصة آدم محور سورة الكهف: لقد جاءت قصة آدم في وسط قصص سورة الكهف، إذ سبقتها قصتان، هما قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين. كما تلتها قصتان هما قصّة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين.

ويلاحظ أن معاني قصة آدم تنعكس على ما قبلها وما بعدها من القصص بشكل تناظري هندسي رائع.

قصتا أصحاب الكهف وصاحب الجنتين: هاتان القصتان تتعلقان بقوم من عامة الناس، فأصحاب الكهف فتية من عامة الناس، ابتلاهم الله باضطهاد الملك الوثني، فصبروا على فراق أهلهم وديارهم، وعلى

العيش في كهف مظلم لا تدخله الشمس. وقد لجؤوا الى الكهف بأبدانهم، لكنهم لجؤوا الى الله ورحمته بقلوبهم [فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا.]، مؤمنين بأن لا ملجأ إلا إلى الله.

وكانوا ناجحين في ابتلاء الصبر بلجوئهم الى الله.

وأما صاحب الجنتين، فهو من عامة الناس أيضاً، وقد ابتلاه الله ابتلاء شكر، فأغدق عليه النعم الدنيوية من شجر وزرع وماء، لكنه لم يشكر الله، ولجأ الى هواه والى متاع الدنيا معتقداً أنه لن يفنى [قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة] فكفر باليوم الآخر، ودفعه هواه الى الاستعلاء على صاحبه الفقير المؤمن، فقال له: [أنا اكثر منك مالاً وأعز نفرا].

وهكذا أخفق هذا الرجل في ابتلاء الشكر.

قصتا موسى وذي القرنين: تقع هاتان القصتان بعد قصة آدم، وتتعلقان برجلين من خاصة الناس، فموسى (عليه السلام) ليس كسائر الناس، بل هو نبي مرسل اختصه الله بمقام روحاني سام. وذو القرنين ليس كسائر الناس، بل هو ملك عظيم حكم كثيراً من الشعوب.

أما قصة موسى، فهي قصة ابتلاء صبر. إذ أرسله الله الى الخضر ليتعلم منه. وعندما طلب موسى الى الخضر أن يرافقه ليتعلم منه، قال له الخضر «إنك لن تستطيع معي صبرا». وهذا ما حدث فعلاً، إذ حدثت ثلاثة أحداث، تصرف الخضر أثناءها تصرفات أثارت موسى، فقد خرق سفينة المساكين وقتل غلاماً بريئاً، ودعم جداراً دون أجر لقوم لئام أبوا أن يضيّفوهما. وكان موسى في كل مرة يعترض على الخضر رغم وعده له ألا يفعل.

وهكذا أخفق موسى في ابتلاء الصبر.

وأما ذو القرنين فقد آتاه الله مُلك الدنيا وفتحها عليه من مشرقها الى مغربها فهل شكر ربه على هذه النعم العظيمة؟

تبيّن السورة ان ذا القرنين قد شكر ربه بالصور التالية:

أ ـ إنه أقام العدل في الأرض، فعاقب الظالم وأحسن إلى المحسن: [قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يُردّ الى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا.]

ب ـ منع ظلم يأجوج ومأجوج عن جيرانهم، فأقام سداً هائلاً دون أن يأخذ عليه اجرا، معترفاً بأن الله قد أنعم عليه بالأموال الكثيرة: [قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا؟ قال ما مكّنّي فيه ربي خير].

وعندما أنهى بناء السد، لم ينسب الفضل في ذلك إلى نفسه، بل نسبه إلى رحمة الله تعالى: [قال هذا رحمة من ربي].

وبذلك نجح في ابتلاء الشكر، إذ التجأ الى الله تعالى مرجعاً الأمور إليه ولم يلجأ إلى هوى نفسه ولا إلى الشيطان واغراءاته.

أبطال القصص نماذج منتقاة: وهكذا تظهر الهندسة الإلهية في مواضيع هذه القصص الأربع (التي تتوسطها قصة آدم)، وفي استيعابها لجميع النماذج البشرية، فنموذجان من عامة الناس: أصحاب الكهف وصاحب الجنتين، ونموذجان من خاصة الناس: أحدهما نبي مرسل فهو نموذج لقمة روحانية وهو موسى (عليه السلام) وثانيهما ملك عظيم هو قمة دنيوية، هو ذو القرنين.

ومن عجب أن يخفق صاحب القمة الروحانية (موسى) في ابتلاء الصبر، بينما ينجح صاحب القمة الدنيوية في ابتلاء الشكر..؟ ومن

عجب أن ينجح فتية ليسوا في مقام موسى الروحاني في ابتلاء الصبر، بينما يخفق صاحب الجنتين في ابتلاء شكر على نعم كثيرة أغدقها الله عليه، ولم يكن يكلفه هذا الشكر سوى الاعتراف بفضل الله عليه.

اصحاب الكهف	صاحب الجنتين	قصة آدم	موسى	ذو القرنين
صبر	شكر	شكر	صبر	شكر
ناجح	مخفق	وصبر	مخفق	ناجح

ونلاحظ أن ابتلاءات الصبر والشكر تتوزع على القصص الأربع بالتساوي كما يتوزع النجاح والاخفاق عليها بالتساوي، وهو تنويع مرتب متناسق يشمل جميع الحالات الممكنة التي قد يتعرض لها البشر، وجميع النماذج البشرية التي تزخر بها الحياة.

هذا هو «المشهد الأمامي» لموضوع الابتلاء في سورة الكهف، غير أننا إذا تعمقنا في السورة، وجدنا أنواعاً أخرى من الابتلاء تموج بها السورة، وكأن السورة سورة الابتلاء؟ فما هو الابتلاء؟ وما هي أنواعه؟

أنواع الابتلاء:

الابتلاء عملية اختبارية تُجرىٰ على إنسان للكشف عن مقدار قدرته العقلية أو العلمية أو الخلقية أو الإيمانية.

أساليب الابتلاء: للابتلاء أساليب مختلفة، منها:

أ ـ توجيه سؤال لفظي أو طلب لفظي أو نهي لفظي إلى الانسان المفحوص. وذلك كما امتحن الله آدم وزوجه بنهيهما عن الأكل من

الشجرة: [ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين].

وكما نهى الخضر موسى عن الاعتراض عليه: [قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا]، وكما امتحن الله ذا القرنين بقوله: [إما أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسنا].

ب ـ وضع الإنسان المعرض للتجربة في موقف معين، ثم النظر في ردود فعله تجاه هذا الموقف الطارىء عليه، والحكم على قدرته من خلال ردود فعله هذه. ومثاله في سورة الكهف وضع الله أصحاب الكهف في مجابهة مع الملك الوثني لاختبار إيمانهم وصبرهم.

أنواع الابتلاء من حيث الموضوع: لكل ابتلاء موضوع يراد الكشف عنه في الإنسان المبتلى، وأنواع الابتلاء من حيث موضوعها هي:

أولا ـ ابتلاء للكشف عن عقل المبتلى وعلمه. ومثال ذلك في سورة الكهف الآيات العجيبة التي أرسل الله بها عيسى (عليه السلام) من إحياء للموتى وشفاء للمرضى، فكانت ردود فعل بعض قومه جواباً على هذا الابتلاء، أظهر ضعف تفكيرهم ونقص علمهم [ما لهم به من علم ولا لآبائهم] إذ أنهم استجابوا لهذه الآيات بأن [قالوا اتخذ الله ولدا].

ثانيا ـ ابتلاء للكشف عن أخلاق المبتلى ونوازعه النفسية: هل هو كريم أم بخيل؟ وهل هو صبور أم جزوع؟ وهل هو شكور للنعمة أم كفور بها؟ وهل هو متواضع أم متكبر؟ وهل هو نزاع إلى العدل أم إلى الظلم؟ وهل هو رحيم أم قاس؟

ومثال ذلك في سورة الكهف الابتلاء الذي تعرض له ذو القرنين بأن عرض عليه جيران يأجوج ومأجوج أجرة مقابل بنائه السد لهم، لكنه رفض أخذ الأجرة، فكشف هذا الابتلاء عن كرمه. ومثاله أيضاً ابتلاء الله لصاحب الجنتين بإغداق الخيرات عليه، فكان رد فعله التكبر والاستعلاء على رفيقه المؤمن اذ قال له: [أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفرا].

ثالثاً ـ ابتلاء للكشف عن إيمان المبتلى، وهو يشمل النوعين السابقين، لأن الإيمان مبني على العقل والعلم والأخلاق. ومثاله في سورة الكهف ابتلاء أصحاب الكهف باضطهاد الملك الوثني، فأظهروا إيمانا راسخاً وصبرا عظيماً.

ويشهد له قوله تعالى: [أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون] (العنكبوت ـ ١)

أنواع الابتلاء من حيث هدفه: للابتلاء من حيث هدفه نوعان:

أولهما ـ أن يمتحن إنسان آخر للكشف عن قدراته بهدف وضعه في الموضع الصحيح المناسب. ومثال ذلك أن تتقدم أعداد كبيرة من الشبأن لامتحان تبيّن نتائجه مقدرة كل شاب في عمل من الأعمال يراد إسناده إليه، فإن نال عدد من الشبان درجات عالية في مادة الرياضيات مثلاً، كانوا أهلاً لأن تسند إليهم أعمال المحاسبة، وإن نال فريق آخر درجات عالية في مادة الكيمياء، كانوا أهلاً لأن تُسند إليهم الأعمال المخبرية، وهكذا..

فهذا النوع من الابتلاء هدفه تصنيفي، ومثاله في سورة الكهف، ابتلاء الناس جميعاً بانزال كتاب الله وإرسال رسوله (ﷺ): [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب]، ثم بتعريضهم لمغريات الحياة الدنيا وزينتها: [إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا]، وتكون نتيجة هذا الابتلاء تصنيف الناس إلى صنفين رئيسيين: صنف يدخل الجنة: [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا]، وصنف يدخل النار: [إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا.].

وثانيهما ـ أن يكون هدف الامتحان تدريب الممتحن وتعليمه، ومثال ذلك أن يقوم معلم بامتحانات تدريبية لطلابه قبل دخولهم الامتحان الرسمي النهائي، وذلك لأن الطلاب لا بدّ أن يخطئوا في هذه الامتحانات التدريبية، فيصحح لهم المعلم أخطاءهم، فيستفيدوا من أخطائهم، لأن الإنسان يتعلم من أخطائه أكثر مما يتعلم من المطالعة والدراسة المباشرة.

ومثال هذا النوع في سورة الكهف ما ورد في قصة سبب نزولها، من نسيان الرسول (ﷺ) قوله «ان شاء الله» عندما وعد المشركين أن يخبرهم عن أصحاب الكهف وذي القرنين قائلا: (أخبركم غداً عما سألتم). وهنا ابتلاه الله ليعلمه، إذ قطع عنه الوحي خمس عشرة ليلة، وتركه يفكر في أثنائها وهو في موقف حرج جداً، متسائلاً عن سبب انقطاع الوحي. ثم نزل الوحي يصحح له خطأه قائلاً: [ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله].

الابتلاء في سورة الكهف عموماً

بيّنت فيما مضى ما ورد من ابتلاء الصبر وابتلاء الشكر في السورة. والآن أبيّن ـ إن شاء الله ـ أنواع الابتلاء الأخرى.

١ ـ إن إنزال القرآن الكريم ابتلاء للناس جميعاً، فتبليغ مبادئه للناس على يد رسول الله (ﷺ) والمسلمين من بعده، هو وضع للناس في موقف يتعين عليهم فيه أن يقوموا بردّ فعل معيّن تجاهه. فهم إما أن يستجيبوا له وإما أن يقاوموه.

وقد افتُتحت السورة بإعلان إنزال القرآن الكريم: [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنـه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً].

وقـد بينت الآية أن القرآن الكريم (قيّم) لا عوج فيه، فذو العقل «القويم» الراجح لا بدّ أن يستجيب له، فينجح في هذا الابتلاء العقلي العلمي. وأمـا ذو العقـل «المعوج» فسوف يقاومه لتضارب عقله مع طبيعة القرآن القويمة.

أما كيفية مقاومة الكفار للقرآن الكريم، فقد بينتها آيات أخرى، إذ ذكرت أن الكفار يلجؤون إلى الجدل والاستهزاء، لأنهم يعجزون عن دحض المبادىء القرآنية السامية بالحجة والعقل، بعد أن عرضها هذا الكتاب العظيم عرضاً رائعاً بليغاً ولم يدع مثلاً حكيماً إلا أوضحه أعظم إيضاح: [ولقد صّرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً... ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا].

وانزال القرآن الكريم أيضاً ابتلاء صبر، فمن قبل بمبادئه كان عليه

ان يلتزم بنهجه وأن يصبر على تحمل أعباء تعاليمه التي لا تخلو من مشقـة على النفـوس. فصيـام رمضان يحتاج الى نفوس تصبر عن الشهـوات، والحـج لا تطيقه الا نفوس صبورة على مشقات السفر، وحتى الصلاة يجب على القائم بها أن يتحلى بالصبر على الحفاظ على مواعيدها وعلى مداومة التطهر من أجلها: [واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلّا على الخاشعين]

كذلك لا بد لمن قبل بالمبادىء القرآنية من أن يصبر على أذى الكفار، الذين لا شك سيتصدون للمؤمنين ويحاولون إعادتهم الى الكفر، ومثال ذلك أصحاب الكهف الذين اضطهدهم الملك الوثني بسبب دينهم القويم.

وقـد أشـارت السورة الى من استجاب للقرآن ونجح في الابتلاء، بالآيات: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه]. فهؤلاء المؤمنون استجابوا لداعي الله، فاتجهوا الى ربهم في الصباح والمساء يطلبون الرحمة من الله تعالى.

كمـا أشـارت الى هذا الفـريق في الآية: [ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا].

أما الفريق الكافر فقد اشارت إليه في الآيتين: [ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا]، [ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا].

والابتلاء بانزال القرآن ـ كما تقدم ـ ابتلاء تصنيفي، الهدف منه تصنيف الناس الى صنفين، مؤمن وكافر، يوضع كل منهما في مكان يناسبه، في الجنة أو في النار.

٢ ـ قوله تعالى في السورة: [وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبـائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا]

يشير الى ابتلاء سابق لبني إسرائيل، تعرضوا له بمعجزات عيسى عليه السلام وخوارقه المذهلة كإحيائه للموتى وإبرائه للأعمى والأبرص. وهو ابتلاء لعقول الناس وعلمهم وإيمانهم، والهدف من تعليم الناس أن الله قادر على كل شيء، فبإذنه ومشيئته وحده تمت هذه المعجزات.

وقد انقسمت بنو اسرائيل نتيجة لهذا الابتلاء الى ثلاثة أقسام.

أ ـ قسم حكم على هذه المعجزات الحكم الايماني العقلي الصحيح، فعرف أنها آيات أعطيت للمسيح لتثبت أنه رسول من عند الله، وتثبت أن الله على كل شيء قدير.

ب ـ وقسم حكم على هذه المعجزات حكما عقلياً علمياً خاطئا، فظن أنها من قبيل السحر، فلم يميّز بين فعل الله وفعل السحرة، رغم أنهم كان لديهم علم سابق بالفرق بين الخوارق الالهية وألاعيب السحرة، وذلك فيما ورد في التوراة عن معجزات موسى (عليه السلام) وكيف غلبت معجزات موسى الإلهية ألاعيب السحرة فابتعلت عصا موسى حبال السحرة وعصيهم، مما جعل السحرة أنفسهم يؤمنون برسالة موسى (عليه السلام).

وهذا القسم من بني اسرائيل كفر برسالة عيسى (عليه السلام) وبقي على يهوديته المحرفة.

د ـ وقسم حكم على معجزات عيسى حكماً عقليا ايمانيا خاطئا، ففسرها بأنها آيات على ألوهية المسيح، وقرن ذلك بولادة المسيح من غير أب، فاستنتج ان المسيح ابن الله رغم أن العلم السابق عندهم في التوراة يؤكد أن الله واحد ولم يذكر له ولدا ولا والدا.

كما أن العقل يمنع ان يكون لله ولد: فالولادة هي حتماً ظاهرة مقصورة على المخلوقات الضعيفة الفانية، فالمخلوق يهرم فتضعف قواه، فهو محتاج الى ولد يعينه في هرمه. والمخلوق بعد هرمه يموت، وقد

اقتضت حكمة الله أن يعمر الناس الأرض فجعلت للأب أولادا يخلفونه بعد موته ليعمروا الأرض.

أما الله تعالى خالق كل شيء والقادر على كل شيء، فلا يهرم ولا يضعف ولا يموت، وكيف يموت وهو خالق الموت ومقدّره على المخلوقات؟ وكيف يضعف وهو مالك القوة بأسرها؟

فما حاجته تعالى الى ولد يعينه أو يخلفه؟

ها هي كتبهم التي تنسب إلى المسيح قوله إنه ابن الله، تنسب إليه مراراً عديدة قوله أنه «ابن الإنسان» وقد أبى أن يقبل من أحد أتباعه أن يصفه بصفة الصلاح. لقد قال له هذا التابع: «أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحا؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله) (انجيل متى ١٩/١٦/١٧).

فكيف يكون المسيح إلها غير صالح أو ابن إله غير صالح؟

وهكذا أخطأ علم هذا الفريق الذي زعم لله ولدا: «ما لهم به من علم ولا لآبائهم».

٣ ـ ابتلى الله أصحاب الكهف من حيث صبرهم وايمانهم وعلمهم. أما من حيث الصبر فقد مضى بحث ذلك. وأما من حيث الإيمان والعلم، فقد ثبتوا على ايمانهم بالله، وانطلقت عقولهم تدافع عن الحق، فعرفت ان الاشراك بالله «شطط» اي انحراف عقلي، وان المشرك لا يستطيع ان يأتي «بسلطان» أي برهان عقلي أو علمي على شركه:

«وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن، فمن أظلم ممن افترى على الله

كذبا؟؟»

كما ظهر ايمانهم بالله عميقاً لما أظهروه من ثقة في رحمة الله [فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من امركم مرفقا].

لكن هناك ابتلاء لعلمهم أخفق فيه علمهم. ذلك أنهم بعد أن بعثهم الله من سباتهم الطويل الذي دام اكثر من ثلاثمئة سنة، أخفقوا في تقدير مدة نومهم، فمنهم من قدّر المدة بيوم أو بعض يوم، ومنهم من أظهر عجزه عن التقدير، ووكل تقدير ذلك إلى الله فقال «ربكم أعلم بما لبثتم». وهذا الفريق ـ بإرجاعه العلم الى الله ـ قد نجح في الامتحان الإيماني، وان أخفق في الامتحان العلمي.

٤ ـ كانت قصة نوم أصحاب الكهف مدة طويلة ثم بعثهم وكشف أمرهم لدى أهل ذلك الزمان ابتلاء لمعاصريهم، هدفه تعليم الناس أن الله قادر على إحياء الموتى يوم القيامة. وقد صرحت السورة بذلك فقالت: «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لاريب فيها».

وقد نجح أهل ذلك الزمان في فهم هذا الدرس والاستجابة له، يدل على ذلك تعظيمهم للفتية ببنائهم مسجداً عليهم: [قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا] رغم كراهة ذلك في الشريعة الإسلامية، خوفاً من انزلاق الناس ـ مع الزمان ـ إلى اتخاذ قبورهم أوثانا يعبدونها، كما حدث فعلاً في أزمان سابقة ولاحقة.

٥ ـ كان عدد أصحاب الكهف ابتلاء علمياً لكثير من الناس: فمنهم من قال إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم، ومنهم من قال إنهم خمسة سادسهم كلبهم، ومنهم من قال إنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

والابتلاء العلمي الحقيقي في هذا الأمر ليس معرفة عددهم، وانما هو معرفة أن العلم بعددهم ليس ذا أهمية، فهو من قبيل العلم الذي لا ينفع، فلا حاجة للبحث عن عددهم، ولا حكمة في الجدل في هذا

العدد، وانما المنفعة في اقتناص العبرة من قصتهم، وهي أن الله قادر على بعث الناس يوم القيامة.

لذا نهى الله نبيّه (ﷺ) عن الجدال في عددهم: [قل ربي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم الا مراءً ظاهراً ولا تستفتِ فيهم منهم أحدا].

٦ ـ ابتلى الله رسوله ابتلاء تعليمياً حين سأله المشركون بإيعاز من اليهود عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، كما ورد في سبب نزول السورة. إذ قال لهم الرسول [أخبركم غداً عما سألتم عنه]، ولم يقل «ان شاء الله»، فانقطع الوحي عنه خمس عشرة ليلة ـ وهذا هو موطن الابتلاء، إذ أن تفكيره في سبب انقطاعه، أثار جميع عواطفه وحواسه، وغدا متلهفاً إلى معرفة السبب، فلما نزل الوحي يأمره بأن يقول «إن شاء الله» كلما قال لشيء: [إني فاعل ذلك غداً]، كان ذلك تعليماً له (ﷺ):

ونسيان الرسول (ﷺ) لقول «إن شاء الله» ناجم عن أنه بشر قد يخطىء أخطاء رمزية طفيفة لا تغض من علمه ولا من فضله شيئا، وقد امتنّ الله عليه بأنه علّمه ما لم يكن يعلم، فقال: [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً] (النّساء ـ ١١٣)

وكان رسول الله (ﷺ) أعظم الناس تعلماً وأحفظهم لما يعلمه ربّه، حتى إن عائشة (رض) قالت عنه: إن خلقه كان «القرآن» أي كان شديد الحرص على تطبيق الأوامر القرآنية.

٧ ـ ابتلى الله رسوله بعناد المشركين وإصرارهم على الكفر، وقد كشف هذا الابتلاء عن جانب من أخلاق الرسول الكريم، وهو الرحمة الأصيلة في قلبه الكبير، حتى تجاه أعدائه المشركين؟ فقد كان شديد الخوف

عليهم من العذاب يوم القيامة، مما جعله يكاد يهلك نفسه أسفاً عليهم: [فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا].

وهذا ابتلاء لصبر الرسول (ﷺ)، وقدرته على ضبط نوازع الحزن في قلبه الشريف. وهو أيضاً اختبار تعليمي يرشد الرسول (وأمته) الى ضرورة الإيمان بقضاء الله وقدره فقد قال الله [إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملا، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً]. فقد جعل الله بحكمته هذه الدنيا دار ابتلاء للبشر، ولا بّد من قوم ينجحون في هذا الامتحان، ولا بدّ من قوم يخفقون فيه، فتلك سنة الله في كل ابتلاء، فلنفرح لمن ينجحون، ولنخفف من حزننا والأسف على الخاسرين.

٨ ـ ابتلي الرسول ابتلاء تعليميا آخر في قضية فقراء المؤمنين وأغنياء الكافرين. وقد أورد ابن كثير حديثا رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: «كنا مع النبي (ﷺ) ستة نفر، فقال المشركون للنبي (ﷺ): اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما. فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله ان يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: [ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه].

فقد أغرى المشركون الرسول بطرد فقراء المسلمين من مجلسه، وكأنه قد حدثته نفسه بفعل ذلك، أملاً أن يؤدّي ذلك إلى إيمان أكابر المشركين بالإسلام ودعمهم للدعوة الاسلامية.

فصححت الآية للرسول ما كانت نفسه تحدّثه به، فقالت [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه... ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا].

٩ ـ في قصة صاحب الجنتين أربعة ابتلاءاتٍ أهمها وأولها ابتلاء

الشكر الذي سبق الحديث عنه، وقد أخفق فيه.

وهناك ابتلاء فرعي وجهه إليه صاحبه إذ قال له: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟]، فهو يلفت نظره الى أن خلق الإنسان بهذه الصورة المعجزة التي يشاهدها كل إنسان، يجب أن يستثير عقله وحواسه لتفسير هذه المعجزة، فهي تلقي عليه سؤالاً ملحاً يجب أن يجيب عنه، وتوقعه في امتحان خطير يجب أن يحل ألغازه: كيف أصبحت هذه النطفة الحقيرة البالغة الضعف رجلاً تاماً قوياً سوياً ذا عقل وحواس وأعضاء معقدة متكاملة؟

وقد أخفق صاحب الجنتين في هذا الامتحان، فلم يبذل جهداً فكرياً ليستنتج أن هذه النطفة لم تكن لتصبح رجلاً كاملاً دون تدبير واضح من خالق قادر عليم.

وهناك ابتلاء ثالث، ابتلاء صبر وجهه الله إلى هذا الرجل، إذ أصاب ثماره بالدمار الشامل: «وأحيط بثمره»، فأخفق في هذا الابتلاء الخلقي، وأظهر الجزع الشديد: «فأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها». وتقليب الكفين من علامات الجزع وفقدان الصبر.

لكنه أخيراً نجح في ابتلاء رابع فقد أدرك بعد كل ما جرى له أن ما أصابه هو عقوبة مباشرة من الله على كفره [illegible] [يقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا]، وهو دليل على ندمه على كفره ورجوعه عنه، فكان هذا امتحاناً تعليميا ناجحاً له.

١٠ ـ يبتلي الله البشر بالمال والبنين «زينة الحياة الدنيا». فمن آتاه الله المال فشكر الله عليه حق الشكر فأنفق زكاة ماله ووصل به رحمه وأحسن الى الفقراء فقد نجح في الامتحان، ويكون قد حوّل المال الفاني

الى عمل صالح باق «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا»، وهي أبرع تجارة يقوم بها الانسان في حياته؟

وكسب المال أيضا ابتلاء صبر، فالحصول على المال أمر يتطلب الصبر الطويل وضبط النفس، وكثيراً ما يكون الصبر العامل الأول في نجاح الانسان في عمله الذي يكسب منه رزقه.

وأما البنون فهم أيضا ابتلاء صبر وشكر.. فمن آتاه الله البنين، فشكر الله على ذلك، فربّاهم التربية السليمة المؤسسة على الايمان بالله ورسوله، وصبر على عناء تربيتهم فقد نجح في امتحاني الشكر والصبر معاً.

١١ - في قصة آدم والملائكة وإبليس الابتلاءات التالية:-

أ - ابتلى الله الملائكة ابتلاء علمياً حين طلب إليهم أن يخبروه بأسماء بعض الكائنات فعجزوا وأخفقوا في الامتحان، ثم وجّه الى آدم نفس السؤال فعرف الأسماء ونجح في الامتحان. والغرض من الابتلائين إظهار فضل آدم على الملائكة في العلم تمهيداً لأمرهم بالسجود له.

ب - ابتلى الله الملائكة والجن بالسجود لآدم ابتلاء إيمانيا، فسجد الملائكة فنجحوا في الامتحان، إذ ظهرت حقيقة نفوسهم المؤمنة بالله المطيعة له، وأبى إبليس السجود فأخفق في الامتحان وظهرت نفسه المستكبرة وعدواته الشديد لآدم.

وهذا ابتلاء تصنيفي: إذ تميّزت الكائنات العاقلة أمام آدم الى صنفين متمايزين: صنف الملائكة الصديق لآدم، وصنف الشياطين العدوّ له.

ج - ابتلى الله آدم بنهيه له عن الأكل من الشجرة ابتلاء صبر عن ما اشتهى، فعصى ربه وأكل منها هو وزوجه فأخفقا في امتحان الصبر،

كما سبق بيانه. غير أن هذا الامتحان كشف عن عيب خطير في نفس آدم، هو أحد أركان ضعفه، ألا وهو النسيان. فقد نسي أولاً نهي ربه له عن الأكل من الشجرة، كما نسي ثانيا عداوة إبليس له التي ظهرت حين امتنع ابليس عن السجود لآدم، وصدّق حججه الكاذبة التي أغراه بها بالأكل من الشجرة: [فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم: هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟] (طه - ١٢٠).

ولقد علم إبليس نقطة الضعف الخطرة في آدم وهي شعوره بالخوف من الفناء والفقر..

د - إن أعظم ابتلاء تعرّض له آدم هو الابتلاء الذي وقع له بعد الخطيئة والأكل من الشجرة: فكيف يتصرف في هذا الموقف الحرج؟ لقد تاب آدم وزوجه إلى الله ولم يصّرا على العناد وعلى محالفة عدوهما الشيطان، واعترفا بالخطيئة والضعف، والتجأا إلى الله طالبين المغفرة. [قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين] (الأعراف - ٢٣).

وقد نجح آدم في هذا الابتلاء الذي هو الهدف الحقيقي من جميع الابتلاءات السابقة التي أدت إليه والتي كشفت عن الحقائق التالية:

رغم تفوق آدم العلمي فإنه ضعيف بالنسيان، ضعيف بالشهوة، ضعيف أمام اغراءات الشيطان، ولا يمكن جبر هذا الضعف وإصلاحه إلا بلجوء آدم الى الله. وهذه هي العبرة التي توجهها إلينا سورة الكهف من خلال قصة آدم، وكأنها تقول: أيها البشر، إنكم مهما أوتيتم من العلم ومن حطام الدنيا، فإنكم ضعفاء خطاؤون، ودواء ذلك الوحيد هو الاعتراف بضعفكم والالتجاء الى الله القوي الرحيم العليم الحكيم.

وهـذه الفكـرة هي التي تربـط فكـرة «الابتلاء» بفكرة المأوى أو «الملجأ» التي ندرسها قريباً إن شاء الله.

١٢ـ في قصة موسى والخضـر ـ كما مر معنا ـ ابتلاء رئيسي، هو ابتلاء تعليمي لصبر موسى (ﷺ). لكن في القصة أيضاً امتحانات فرعية:

أ ـ ابتـلى الله موسى ابتلاء تعليمياً على لسان أحد رجال قومه إذ سأله: «من أعلم الناس؟» وكان الواجب ان يُرجع موسى الأمر الى علم الله، فيقـول مثلاً: «الله أعلم»، لكنه أجاب «أنا»، فجعل نفسه أعلم الناس، مستندا إلى فكرة وجيهة، وهي أنه نبيّ الله ورسوله وكليمه الذي اصطفاه على أهل ذلك الزمن.

وكـان الهـدف من هذا الامتحان التعليمي تعليم موسى أن يرجع الأمور الى علم الله. وقد صحّح الله له خطأه، فأفهمه أن هناك رجلاً أعلم منه.

ب ـ إن ذكر الله لموسى أن هناك من هو أعلم منه، هو ابتلاء له يختبر فيه حبّه للعلم وتواضعه في آن واحد. وقد نجح موسى في هذا الامتحان نجاحاً كبيرا، فإنه طلب الى الله أن يجمعه بذلك العبد الذي هو أعلم منه مهما كلّفه ذلك من مشقة، فهو بذلك لم يتكبر على التعلم من ذلك العبد، بل اندفع نحوه بحماسة بالغة، ينم عنها قوله: [واذ قال موسى لفتاه: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا]. فهو عازم أمره على الوصول إلى مجمع البحرين حيث يجد العبد العالم، ولو كلفه ذلك سفراً طويلاً يستمر أحقاباً مديدة من الزمان..؟

ج ـ وهناك ابتلاء آخر لموسى هو تحّدي الخضر له إذ قال: [إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا]. فنراه يؤكّد للخضر أنه سيجده صابراً مطيعاً له، لكنه لم ينسَ أن يرجع ذلك الى مشيئـة الله: [قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا]

فنجح في هذا الامتحان الإيماني.

د ـ الابتلاء الرئيسي الذي وقع لموسى ـ كما سبق ـ هو ابتلاء صبره على مشاهدة الأحداث الثلاثة التي قام بها الخضر دون ان يعترض عليهـا، وهي حوادث خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار. وقد يكون موسى مُحِقاً في الاعتراض على هذه المخالفات الظاهرية لولا أنه وعد بأنه سيصبر ولا يعترض.

وهذا الابتلاء من النوع التعليمي، هدفه تعليم موسى والكشف له عن حوادث خطيرة من قضـاء الله وقدره في أحداث تجري في حياتنا اليومية من هدم وموت وغيرها ولا نعلم حكمة الله فيها، فيجب أن لا نعترض عليها بعد أن نستنفد جميع الوسائل العملية في إصلاحها، وعلينا أن نسلم أمرنا إلى حكمة الله فيها.

ترابط عجيب: وهنا ألاحظ ترابطاً عجيباً بين الأحداث الثلاثة التي أجراها الخضر أمام موسى: فإنّ خرق السفينة إحسان إلى أصحابها بالإساءة الى السفينة نفسها، وقتل الغلام أيضا إحسان إلى والديه بالإساءة الى الغلام نفسه، أما دعم الخضر للجدار فهو إحسان إلى الوالد الصالح بالاحسان إلى ولديه اليتيمين.

فالموضوع المشترك بين الحوادث الثلاثة هو الاحسان الى إنسان بالإساءة الى آخر أو بالاحسان إليه.

١٣ ـ كان الابتلاء الرئيسي لذي القرنين ـ كما سبق ـ ابتلاء شكر نجح فيه، لكن هناك ابتلاء فرعياً، هو ابتلاء صبر. فإن حكم الدنيا بأسرها من مشرقها إلى مغربها يحتاج الى صبر عظيم. وقطع المسافات الهائلة أيضاً يحتاج الى صبر كبير، وبناء السد العظيم الذي أشرف ذو القرنين على إنشائه احتاج الى تحمل عظيم.

كما ابتلى الله ذا القرنين ابتلاء خلقياً للكشف عما استقر في نفسه من حب للعدل وكراهية للظلم، فخيّره بين أن يعذب أهل المغرب وبين أن يحسن إليهم، فأجاب بأنه سيعذب الظالمين ويحسن الى المحسنين.

كما ان تمكين الله له من بناء السدّ كان ابتلاء لتواضعه لربه، وقد نجح في هذا الابتلاء إذ أرجع الفضل في بناء السدّ الى الله، ولم يرجعه الى نفسه [قال هذا رحمة من ربي].

وابتلى الله ذا القرنين أيضاً ابتلاء خلقياً ليكشف عن صفة الكرم في نفسه، فقد عرض عليه قوم ما بين السدّين أجراً مقابل إقامته لسدٍ يمنع عنهم ظلم يأجوج ومأجوج، فأبى أن يأخذ منهم أجراً على ذلك، فنجح في هذا الابتلاء مظهراً كرماً عظيماً.

وهكذا اتضح لنا أن موضوع «الابتلاء» بأنواعه المختلفة وأساليبه المتعددة يسري في سورة الكهف موحداً بين أجزائها في تناسق بديع وتماسك جميل.

لقد حرصت سورة الكهف من خلال موضوع الابتلاء السابق على إظهار ضعف الانسان. فالإنسان كثير النسيان، كثير الخطأ، أسير الهوى والشهوة والغرور، كثير الانخداع بوساوس الشيطان وإغراءاته، كما تجلى ذلك في قصة آدم وقصة صاحب الجنتين. وحتى الأنبياء الكرام لا يخلون من أخطاء رمزية. وقد يعمى الهوى الإنسان فلا يعود يميز بين الحق والباطل: [قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا].

وليس عجيباً أن يتجلى هذا الضعف في هذا الانسان الذي أصله نطفة وضيعة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعاً: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟].

أما الله جل جلاله، فقد حرصت السورة على إظهار وحدانيته المطلقة وقدرته على كل شيء: [وكان الله على كل شيء مقتدرا]، وعلمه بكل شيء [قل الله أعلم بما لبثوا، له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع]، ومشيئته المطلقة وقوته المسيطرة على الكون بأسره [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله]، وقدرته على تسيير الجبال الشامخة: [ويوم نسيّر الجبال] وعلى تدمير القرى [وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا] وعلى حفظ أعمال الناس في كتاب يرونه يوم محاسبتهم: [ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه]، وأنه خلق السموات والأرض وما فيهما وحده دون معين: [ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفهم وما كنت متخذ المضلين عضدا].

وأنه تعالى رحيم غفور يمهل الظالم ويرحم المستجير به [فأووا الى

الكهف ينشر لكم ربكم من رحمتـه] [وربـك الغفـور ذو الرحمة، لو يؤاخـذهم بمـا كسبـوا لعجل لهم العذاب]، وأنه وحده يملك هداية البشر: [من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا.].

كأن السورة بعرضها لصفات الله الحسنى وصفات الانسان الدنيا تخاطب الانسان قائلة: أيها الانسان إنك مبتلى بضعفك هذا المتعدد الجوانب، وانك معرض للخطر الشديد، خطر شقاوة الأبد. فإن اردت ان تنجح في هذا الابتلاء، وتنجو من الشقاء، فليس أمامك سوى اللجوء الى الله وحده، فهو المأوى الحقيقي الوحيد الذي يقيك عثراتك، وتجد عنده الرحمة والعلم والهدى والنور والخلاص من الجهل والظلام والظلم.

الله المأوى الأعظم:

لقد نصت السورة بصراحة على أن الله هو المأوى الحقيقي الوحيد للخلق كافة إذ قالت [واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا] والملتحد هو الملجأ أو المأوى. وأما سوى الله من الملاجىء فهي ملاجىء فرعية لا تقوم بذاتها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

وقد قال تعالى في سورة التوبة: [وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه] (١١٨)

وأورد ابن كثير رحمه الله حديثا شريفاً عند تفسيره لقول لوط (ﷺ)، [لو أن لي بكم قوةً أو آوي الى ركن شديد] (هود ـ ٨٠)، وهو قوله (ﷺ): [رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي الى ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه].

فلا حرج إذن في القول إن الله «مأوى» أو إنه «ركن».

كيف تتّخذ الله مأوى؟

لقد بينت السور الكريمة أن على الانسان أن يتخذ الله مأوى له وملجأ بالطرق التالية:

(١) ـ أن يؤمن بالله وحده ويعبده وحده: [ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً] [فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا].

(٢) ـ أن يدعـو الله دائمـا: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه] [لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا]

(٣) ـ ذكره تعالى ذكراً كثيراً: [واذكر ربك إذا نسيت].

(٤) ـ حمده تعالى: [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب]

(٥) ـ الإيمـان بكماله المطلق وصفاته الحسنى كقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وبصره وسمعه بكل شيء: [قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا].

(٦) ـ إرجاع الأمور كلها إلى مشيئته تعالى وعلمه وقوته، وذلك كما في الآيات التالية:

أ ـ أمر الله رسوله أن يرجع حدوث الأشياء كلها الى مشيئته: [ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله].

ب ـ حينما قال الخضر لموسى: [إنك لن تستطيع معي صبرا] أجابه موسى [ستجدني إن شاء الله صابرا] فأرجع صبره الى مشيئة الله، وبذلك يكون قد لجأ إلى الله.

جـ ـ أمر الله رسوله (ﷺ) أن يُرجع علم الأمور كلها الى الله: [قل ربي أعلم بعدتهم]، [قل الله أعلم بما لبثوا]، وأرجع أصحاب الكهف

مدة لبثهم فيه الى علم الله فقالوا: [ربكم أعلم بما لبثتم.].

د ـ طلب الرجل الصالح الى صاحب الجنتين ان يرجع الفضل في ازدهار جنتيه الى قوة الله ومشيئته: [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله]. كما طلب إليه أن يذكر أن خلقه هو نفسه قد تم بقدرة الله: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً؟]

هـ ـ نسب الخضر الأحداث التي شهدها موسى الى ارادة الله وقدرته وأمره، فإبدال الولد البار بالولد العاق كان بارادة الله: [فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحما] وحفظ الكنز لليتيمين كان برحمة الله: [فأراد ربك ان يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربك، وما فعلته عن أمري].

و ـ كان ذو القرنين يعلم أن ما لديه من قوة هو من الله، وصّرح بذلك للقوم الذين طلبوا إليه إقامة السدّ بينهم وبين يأجوج ومأجوج فقال لهم: [ما مكّنّي فيه ربي خير].

وبعد أن أتم بناء السد نسب إتمامه إلى رحمة الله: [قال هذا رحمة من ربي]

كما نسب انهيار السد قبيل يوم القيامة الى وعد الله: [فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا].

(٧) ـ طاعة الله ـ [فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا]. وكان ذو القرنين مثالاً لمن لجأ الى الله بطاعته فأقام العدل ومنع الظلم.



(١) ـ الرسل: «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين»

(٢) ـ القرآن الكريم: «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا».

(٣) ـ الصالحون: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

(الخضر): «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما».

(٤) ـ العمل الصالح: «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا».

«ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا».

(٥) ـ متاع الحياة الدنيا الصالح:

(المال): «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه».

(الطعام): «فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا»

(السد): «فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما.. قال هذا رحمة من ربي».

المــآوي الفرعيــة

اذا كان الله تعالى هو الملجأ الحقيقي الوحيد للانسان، كما أكّدت سورة الكهف، إذ قالت «ولن تجد من دونه ملتحدا»، فهل هذا يعني أن ليس ثمة ملاجىء أخرى يلقاها الإنسان في حياته؟

ان السورة ترشد إلى أن هناك مآوي أخرى فرعية قد يلجأ إليها الإنســان لجــوءاً مؤقتــاً. وذلك كما في الآيتين: «إذ أوى الفتية الى الكهف»، «أرأيت إذ أوينا الى الصخرة».

معنى المأوى:والمأوى في الأصل مكان يلجأ إليه الانسان ليحميه من خطر أو شر يخشاه، ويهيىء له «مرافق أي منافع. وأبسط مثال لذلك هو البـيت الذي يحمي ساكنــه من عدوان الأشرار من النــاس أو الوحوش، ومن طغيان الظروف الجوية من حر وبرد ومطر وغبار. ويجد فيه ساكنه المرافق المختلفة من أدوات ينتفع بها كالأواني والفراش، وأماكن يصلح بها أموره كالمطبخ والحمام وغيرهما.

ومن النــاس من يتخد مأوى ضاراً به، وهو يظن أنه ينفعه، كمن يأوى إلى حانــة (خمــارة)، يجد فيها اللذة العاجلة دون أن يحسب حساباً لضررها البالغ على صحته وجسمه وعقله وخلقه.

وقد يكون المأوى مكاناً يلجأ إليه الإنسان رغبة في أشياء غير مادية كالعلم. فالمدرسة مأوى علمي يلجأ إليه الطالب يتّقي به خطر الجهل ويحــظى فيــه بفــوائد العلم. كما أن المدرّس ملجأ بشري يأوي إليه الطالب ليحصــل منــه على العلم. وقد استعمل فعل «آوى في القرآن الكريم بمعنى اللجوء إلى إنسان» كما في قوله تعالى: «ولما دخلوا على يوسف آوىٰ إليه أخاه» (يوسف ـ ٦٩)، وقوله: «وتؤوي إليك من تشاء»

(الأحزاب ـ ٥١).

وقد يكون المأوى أمراً معنوياً محضاً، فقد يتخذ الحاكم «العدل» مأوى يلجأ إليه لإصلاح المجتمع، وقد يلجأ المستعمر إلى «الظلم» ليخضع به ضحاياه، وقد يلجأ شاب الى الهوى أو إلى التقوى..

أنواع المآوي: إن للمآوي الفرعية نوعين رئيسيين هما:

أولاً ـ المآوي الدنيوية

١ ـ المآوي الدنيوية: وهي بدورها نوعان هما:

أ ـ المـآوي الصالحة: وهي كل مأوى إذا لجأت إليه وصلك بالله وزادك منه قرباً، فهي ظلال للمـأوى الإلهي الأعظم، تستمد منه بركاتها. وهذه المآوي هي:

القرآن الكريم والرسل الكرام والصالحون ومتاع الحياة الدنيا الصالح، والأعمال الصالحة.

ب ـ المآوي السيئة: وهي كل مأوى يقطع الانسان عن ربه، وهي:

الهوى والشيطان والشرك بالله ومتاع الحياة الدنيا المستعمل استعمالاً غير مشروع.

وقد وردت جميع أنواع هذه المآوي في سورة الكهف فلأشرع ببيانها مستعيناً بالله تعالى.

أ ـ الملاجىء الدنيوية الصالحة:

١ ـ القرآن الكريم: وقد افتتح الله السورة بذكره فقال: [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا]، فكتاب الله اذا لجأ إليه الانسان دله على الله وهداه الى الطريق المستقيم المؤدي إلى رضوانه والسورة تبيّن حكمة القرآن وشموله فتقول: [ولقد صرفنا في هذا القرآن

للناس من كل مثل]، كما تحض على اللجوء إليه لتلاوته وتدبّر آياته: [واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته]، وتبيّن أن من لجأ إليه فقد أوى إلى بحر علمي هائل لا ينفد: [قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا].

وتذم السورة الكفار الذين هجروا هذا الملجأ المبارك واتخذوا لأنفسهم الجدل والاستهزاء ملجأ: [ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا... ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها].

٢ ـ الرسل الكرام والمؤمنون الصالحون: وهم مأوى طيب مبارك يصل المرء بربه، ولا سيما رسول الله (ﷺ) الذي ورد ذكره في أول السورة [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب]، كما ورد ذكره في آخرها: [قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد] وذكرت السورة الرسل جميعاً ملاذاً لأتباعهم يأوون إليهم فيجدون عندهم البشرى والطمأنينة: [وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين]، أما الكفار فقد قطعوا أنفسهم عن هذا الملاذ وصموا آذانهم عن انذارهم: [وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا].

ويتم اللجوء إلى الرسول باتباع ما أنزل الله اليه من وحي في الكتاب والسنة المطهرة.

أما الصالحون من المؤمنين، فقد ذكرتهم السورة ملاذاً وملجأ للناس يجدون عندهم ما يتعطشون إليه من علم وأمن ورحمة وبركة. وقد ذكرتهم السورة بالتسلسل التالي:

أ ـ فقراء المؤمنين: فهم مأوى نوراني مبارك، أمر الله رسوله باللجوء

إليه والاصرار على ملازمته فقال له: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه].

ب ـ المؤمن صاحب ذي الجنّتين: فهو مأوى صالح يجد عنده المرء الهدى والردع عن الشر. [قال له صاحبه: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟؟ لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا].

لكن صاحبه هجر هذا المأوى بكفره فلقي جزاءه النقمة والندم.

جـ ـ الخضر عليه السلام: وهو مأوى علمي أوى اليه موسى (عليه السلام) مستفيداً من علمه: [فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلّمتَ رُشدا؟].

وقد تعلم منه موسى حكمة بالغة هي عدم الاعتراض على قدر الله في أحداث الحياة، والايمان بأن وراء كل حادث حكمة إلٰهية، مما يدعو الى التسليم الى الله في المصائب التي لا يستطيع لها دفعاً.

د ـ ذو القرنين: كان مأوىً لأهل زمانه وجدوا عنده العدل والرحمة، فعاقب المسيء وأحسن الى المحسن، وبنى سداً لمنع يأجوج ومأجوج من ظلم جيرانهم دون أن يأخذ أجرا.

٣ ـ متاع الحياة الدنيا: لا يمكن الحكم على متاع الحياة الدنيا بالخير أو بالشر من ذات نفسه، فهو ذو طبيعة «محايدة»، فقد يكون متاع الحياة الدنيا خيراً وبركة، وقد يكون شراً ومفسدة عظيمة، وذلك بحسب نية مستعمله وطريقة استعماله. وهو بذلك قد يكون ملجأ صالحاً، وقد

يكون ملجأ شريرا.

فاذا اعتبر الانسان متاع الدنيا ممراً يتزود منه بقدر ما يوصله الى المأوى الأعظم ـ الله جل جلاله ـ كان متاعها مأوى خير. أما إن كان يرى هذا المتاع هدفاً مطلوباً لذاته يخلد إليه ويركن إليه دون نظر إلى خالقه المنعم به عليه، كان متاع الدنيا مأوى سوء يقطع الانسان عن ربه.

وعيب متاع الدنيا الوحيد والخطير هو أنه زائل لا يدوم. قال تعالى: [واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا]. فالدنيا ممر سريع الزوال لا يركن إليه.

وقال تعالى [المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا]، فهذه الآية توازن بين الحياة الدنيا ومتاعها من مال وبنين، وبين الأعمال الصالحة فتقرر أنه على الانسان أن يتجه نحو الثواب الباقي الذي تسفر عنه الأعمال الصالحة.

ولكن ما العمل الصالح؟

إن العمل الصالح لا يتم إلا بالحصول على متاع الحياة الدنيا في أغلب الأحيان..؟

خذ الزكاة مثلًا: فهي عمل صالح، بل من أعظم الأعمال الصالحة التي أوصت بها سور القرآن الكريم في العديد من آياته مقرونة بإقامة الصلاة عماد الدين. والزكاة هي الركن الذي حارب ابو بكر الصديق رضي الله عنه مانعيه وعدّهم مرتدين عن الاسلام.

فهل يمكن تحقيق هذا الركن العظيم دون الحصول على المال، المال الذي قال الله عنه إنه [زينة الحياة الدنيا]؟

وفريضة الحج كيف تتم إن لم يكن لدى الحاج مال يوصله الى

مناسك الحج ويوفر له الزاد والراحلة؟

وفريضة الصلاة، كيف تتم بأكمل أشكالها ـ وهو صلاة الجماعة ـ إن لم تكن هناك مساجد يبنيها المسلمون بالمال زينة الحياة الدنيا؟.

أو لم ينهَ الرسول بعض أصحابه عن المغالاة في هجر متاع الحياة الدنيا من طعام ونساء قائلاً لهم: «وإن لنفسك عليك حقا»؟ أو لم يكن من تعليماته الحكيمة أن المؤمن اذا وضع اللقمة من الطعام في فم زوجته كانت له صدقة؟ أولم يكن من تعليماته أن الرجل اذا قرب امرأته قربا حلالا كان له أجر؟

فمتاع الحياة الدنيا في أصله «محايد»، والإنسان بموقفه منه يجعله إما خيراً وإما شراً. فهو كالسيف تدفع به الشر عن نفسك فيكون خيرا، وتجرح به نفسك فيكون شرا.

ومن هنا جاءت الآية الحكيمة في أوائل السورة تقول: [إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا]، فقد وضعت هذه الآية متاع الدنيا في موضعه الصحيح، اذ جعلته اختباراً للناس تظهر به معادنهم وتحسن أعمالهم أو تسوء بحسب استعمالهم له.

ولنقم الآن بجولة في سورة الكهف باحثين فيها عن المواطن التي لجأ فيها قوم الى متاع الحياة الدنيا، فكان مأوى خير لهم.

أ ـ «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب» ـ والكتاب كلام الله الأبدي، لكنه لا بّد له من ورق وحبر وقلم حتى يبقى محفوظاً للناس يقرؤونه وينهلون منه النور والهدى. والورق والحبر والقلم من متاع الحياة الدنيا ومادتها، وقد أشارت السورة في أواخرها إلى ضرورة مواد الكتابة لتسجيل كلمات الله فقالت: [قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا]. والمداد

هو الحبر.

ب ـ أصحاب الكهف لجؤوا إلى الكهف ليحفظوا إيمانهم من الحاكم الوثني الظالم، والكهف مأوى مادي، فهو مكان ذو جدران وسقف وباب وأرض. فكان استعمالهم لهذا المكان المادي أحسن استعمال، إذ وصلهم بالله وقطعهم عن الوثنية.

جـ ـ النقود التي بعث بها اصحاب الكهف أحدهم الى المدينة ليشتري لهم بها طعاماً ينقذهم من جوعهم الشديد ـ هذه النقود من متاع الحياة الدنيا. وقد استعملوها الاستعمال الفطري السليم ليقوموا بحق أجسادهم عليهم.

د ـ قال الرجل الصالح لصاحب الجنتين: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا؟]. وهي إشارة إلى المآوي المادية العديدة التي يأوى إليها الإنسان في أطوار خلقه المختلفة، والتي تأوي إليها بعض أجزاء جسمه الحساسة ـ صنع الله الذي أتقن كل شيء، وهي من آيات الله العظيمة.

ففي طور النطفة، كان الانسان كائناً حقيراً مهيناً يأوي الى صلب أبيه، فهذا أول مأوى، ثم أصبح في طور الجنين يأوي الى بطن أمه، ذلك المأوى الحصين، كما قال تعالى في سورة المرسلات: [ألم نخلقكم من ماء مهين، فجعلناه نطفة في قرار مكين؟ الى قدر معلوم؟ فقدرنا فنعم القادرون؟].

وبعد أن أصبح بعد ولادته طفلاً أوى الى أمه ترضعه وتنظفه وترعاه.

وبعد أن أصبح رجلاً أو امرأة وجدنا أعضاءه الحساسة تأوي الى ملاجىء مادية متينة تحفظها: فالدماغ الذي هو ملك الجسم ومديره، قد آواه الله في حجرة متينة جداً من العظام في الرأس تحيط به وتدفع

عنه الأذى.

والعين محفوظة في مأوى عظمي آخر هو الحفرة التي تستقر فيها لتحفظها من الضربات المفاجئة، ويحفظها الجفنان والأهداب من أذى الغبار والحشرات والضوء الشديد وغيرها.

والأذن مستقرة أجزاؤها الحساسة في مأوىً حصين داخل الجمجمة. واللسان والأسنان، والقلب والرئتان والكبد والكلى وغيرها محفوظة في مآوٍ متينة تدفع عنها الأذى والجسم كله محاط بمأوى من الجلد الذي يقيه من الأضرار.

كما أن هناك مأوى عجيباً آخر يحمي الجسم من عدوان الجراثيم المهاجمة، وهو الجيش العتيد المؤلف من الكريات البيضاء التي تقابل الجراثيم المعتدية وتقضي عليها بمشيئة الله.

هـ - وموسى (عليه السلام) عندما سافر طلباً للعلم عند الخضر (ع) طلب الى فتاه أن يؤتيه الغداء: [قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا]. والغداء من متاع الحياة الدنيا الذي يتقوى به الإنسان على طاعة الله، فاللجوء إليه خير لا شّر فيه.

٤ - الأعمال الصالحة مآوٍ حسنة:

قال تعالى: [فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً]، وقال: [والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا]، والأعمال الصالحة الرئيسية هي الصلاة والزكاة والصيام والحج:

أ - الصلاة: ملجأ روحي يوصل الانسان بربه [وأقم الصلاة لذكري].

ب - الزكاة: ملجأ تطهيري تربوي يلجأ إليه المؤمن ليطهر نفسه من شحّها: [وأحضرت الأنفس الشح]. كما أن الزكاة ملجأ اجتماعي

مادي يأوي إليه الفقراء يدفعون عن أنفسهم غائلة الجوع والفاقة.

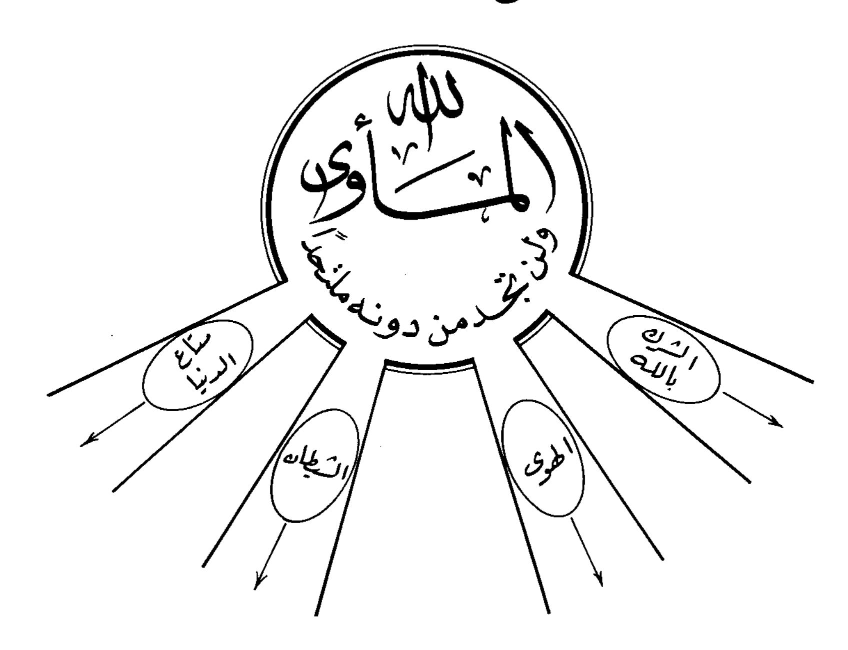
جـ - الصيام: ملجأ تطهيري تربوي، يأوي إليه المؤمن ليطهر نفسه من سيطرة الشهوات، ويحمي إرادته من الضعف والانهيار.

د - الحجّ: ملجأ روحي نفسي مادي، فهو تعريض النفس لنفحات الله في المواطن المقدسة في أوقات مقدسة، كما أنه تربية للنفس على الصبر عن الشهوات بأعمال الاحرام. والحج تطهير للنفس من الشح بما ينفقه المرء فيه من أموال وما يذبح من أضاحي.

والحج أيضاً ملجأ مادي يأوي إليه الفقراء ليأكلوا من لحم الأضاحي: [فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير] (الحج - ٢٨).

المـآوي السـيئة

تقطع الإنسان عن ربه



١ ـ الشرك بالله. «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة»

٢ ـ الهوى: «ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»

٣ ـ الشيطان: «إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟»

٤ ـ متاع الدنيا المستعمل استعمالاً سيئاً: «وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا».

المآوي الدنيوية السيئة

إن المآوي الدنيوية السيئة هي كل ما يلجأ إليه الانسان ويتبعه فيقطعه عن ربه. وهي:

١ ـ **الشرك بالله**: فمن ذلك نسبة الولد إليه تعالى: [وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا] «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً».

٢ ـ **الهوى: المأوى الأثيم**: أرأيت لو أن سيارة مسرعة، يسوقها سائقها بركابها على طريق مستقيم، ثم هاجمه بعض الركاب واشتبكوا معه في صراع؟ فماذا يحدث؟ ألا تتخبط السيارة في طريقها، معوجةً ذات اليمين وذات الشمال، ثم تنحرف نهائياً لتسقط في الخندق المجاور للطريق؟.

إن هذا المثل يوضح ما يحدث للإنسان إذا سيطر عليه الهوى. فلقد خلق الله لكل إنسان منذ ولادته أجهزة عديدة كالجهاز الهضمي والجهاز التناسلي والحواس، وكل منها أعجوبة الأعاجيب في تكوينه وانسجامه مع غيره من الأجهزة، وكلها تعمل لتحقيق غايات مرسومة لها، تلتقي جميعها في حفظ حياة الفرد وحياة الجماعة.

وقد خلق الله في فطرة كل انسان دوافع نفسية تدفعه الى تحقيق حفظ حياته وحياة نوعه. فهناك مثلاً دافع يدفعك الى تناول الطعام لحفظ حياتك بطريقتين: طريقة تجذبك الى الطعام جذباً، وهي اللذة التي تشعر بها حين تأكل، وطريقة تدفعك نحوه دفعاً، وهي ألم الجوع.

وهناك دافع يدفعك الى حفظ نوعك بالزواج بطريقتين أيضاً: ألم الكبت والضيق الذي تشعر به في نفسك إن لم تتزوج، واللذة والانفراج

اللذين تجدهما في الزواج.

والحيوانات لها مثل دوافع الإنسان، إلا أن دوافعها شبه آلية ولا اختيار لها فيها، فليس أمامها سوى طريق واحد تسلكه. أما الانسان فيمتاز بأن أمامه عدة طرق باستطاعته اختيار أحدها لتلبية دوافعه.

وكل دافع يثور في الانسان تثور معه عاطفة نفسية معيّنة، قد تقوى فيقوى معها الدافع المرافق لها، وقد تضعف فيضعف معها دافعها. فدافع الأمومة مثلاً ـ وهو من أقوى الدوافع التي غايتها حفظ النوع البشري ـ تصاحبه عاطفة «الحنوّ». فالأم تشعر بحنوّ على طفلها يحفزها على العناية بطفلها.

إن أمثال هذه العواطف المرافقة للدوافع الفطرية قابلة للزيادة والنقصان، فهي اذا اشتدت تزيد من اندفاع الانسان الى تلبية الدافع الفطري.. وقد تتجاوز شدتها حدود السلامة، وحينئذ تنقلب إلى ما يسمّى بالهوى.

وقد خلق الله لكل انسان جهازاً متقناً، هو الجهاز الإداري العقلي، الذي يساعده في التوفيق بين عواطفه المتصارعة، فيكبتها اذا تجاوزت الحد المعقول، ويستثيرها إذا ضعفت وخارت. وبهذا العقل والارادة يتميز الانسان عن الحيوان.

أما اذا سيطرت العواطف على العقل والارادة فقد وقع صاحبهما في نفس الموقف الذي وقع فيه سائق السيارة حين هاجمه بعض الركاب وأدّى الصراع إلى سقوط السيارة في الخندق. فسيطرة العواطف على العقل والارادة ـ أي الهوى ـ تعصف بالانسان وتسبب له الانحراف عن سواء السبيل، وقد تؤدي به الى الموت الجسمي، بل الموت النفسي والعقلي وهو أخطر الموتين؟

ولأضرب مثلاً على الاعوجاج أو «الشطط» أو الظلم الذي يحدث عند

سيطرة الهوى على أم تجاوزت عندها عاطفة الحنوّ قدرها الطبيعي. لنفرض أن الأم كانت مدّرسة تدرس صفاً في احدى المدارس، وأن بنتاً لها كانت تلميذة في نفس الصف، وأن بنتاً أخرى ليست ابنتها كانت في نفس الصف ايضاً، وكانت تفوق بنت المدرسة ذكاءً واجتهادا. إن سيطرة هوى الحنوّ على الأم المدرّسة يدفعها الى الشطط والظلم، اذ يدفعها الى منح ابنتها زيادة عن حقها من الدرجات، وذلك لتجعلها تسبق البنت الأخرى.

ومن الناس من يلجأ الى الهوى ويستسلم إليه أو «يتبعه»: [ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه]، وبذلك يكون الهوى بئس المأوى لأنه يقطع الانسان عن الله، بل إن بعض الناس قد يتخذ الهوى إلهاً يعبده من دون الله، كما في الآية: [أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة] (الجاثية ٢٣).

وعابد الهوى إنسان مفرط في أنانيته وحبه لذاته، فهو في الحقيقة حينما يعبد هواه فإنما يعبد نفسه، فهو مغتر بنفسه يظنها أشرف الكائنات وأقدرها وأذكاها، فيتعالى على غيره، إما بالاستهزاء به وإما باحتقاره، ويجادل بالباطل معتقداً أن رأيه هو دائماً الرأي الصحيح.

الهوى في سورة الكهف: مأوى الهالكين:

أ ـ وصف الله القرآن الكريم في مطلع السورة فقال [ولم يجعل له عوجا]، فكتاب الله بريء من الاعوجاج، بل هو يقوّم اعوجاج الذين سيطر عليهم الهوى فقالوا [اتخذ الله ولدا] متبعين عقائد آبائهم تقليداً دون علم [ما لهم به من علم ولا لآبائهم]، وهذا التقليد الأعمى للآباء

هو تقديس للنفس، ففاعله يقدس نفسه من خلال تقديس آبائه، وهو من مظاهر الاغترار بالنفس وعبادة الهوى.

ب ـ مقابل ذلك تماماً تذكر السورة قوماً قمعوا هوى التعصب للعشيرة الضالة وتركوا عقائدها الفاسدة متبعين الحق، وهم أصحاب الكهف، الذين قالوا: [هـؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن] وأعلنوا إنكارهم لشطط الهوى واعوجاجه إذ قالوا: [ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قلنا إذاً شططا].

جـ ـ لجأ وجهاء كفار قريش وأغنياؤهم الى هواهم واغترارهم بثرواتهم وبمراكزهم الرفيعة، فطلبوا الى الرسول طرد فقراء المؤمنين من مجلسه حتى يحضروه. وهنا يبرز الهوى في صورة الاستكبار والاستعلاء على الناس: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه... ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه]، واتباع الهوى لجوء إليه، فهم قد اتخذوا الهوى ملجأ ومأوى.

د ـ تقدم السورة مثلاً آخر على لجوء إنسان إلى هوى الاستكبار والاستعلاء على الآخرين، وهو صاحب الجنتين الذي اغتر بثروته وبساتينه، فأخذ يستعلي على صاحبه المؤمن الفقير ويتيه عليه بماله ورجاله قائلاً له: [أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفرا].

هـ ـ اتبع إبليس هوى الاستكبار حينما أمره الله بالسجود لآدم فأبى [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه].

وقد بيّنت سورة الأعراف أن سبب امتناعه عن السجود لآدم هو تكبره عليه لأن عنصر النار المصنوع منه إبليس أشرف من عنصر الطين المصنوع منه آدم: [قال أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين]

(الأعراف ـ ١٢).

كما أن آدم اتبع هواه حينما أكل من الشجرة التي حرمها الله عليه عاصيا بذلك ربه فأخرج من الجنة.

و ـ الجدل بالباطل والاستهزاء ملجآن يلجأ إليهما الذين غلب عليهم الهوى، فانحازوا عن الحق وأرادوا طمسه بالكلام الباطل المنمّق: [ولقد صّرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، وكان الانسان اكثر شيء جدلا]، [ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا].

ز ـ كثيراً ما يلجأ الانسان الى الهوى فيؤدي به الى الظلم والهلاك: [وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا].

حـ ـ اللاجىء الى مأوى الهوى أعمى القلب، لا يميّز الحق من الباطل ولا الحسن من القبيح، ويدفعه غروره الى ان يرى نفسه دائماً على الحق، ودائماً محسناً، وهو في الحقيقة مسيء: [قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً] فبئس الهوى مأوى قاطعاً عن الله، قاطعاً عن الحق والعدل والعلم والاحسان..؟

٣ ـ الشيطان: المأوى الرهيب:

رغم أن الشيطان قد أظهر عداوته لآدم منذ اللحظة الأولى، فاستكبر عليه واحتقره رافضاً أمر ربه بالسجود له، فإن آدم استجاب له وأكل من الشجرة المحرمة فطرد من الجنة. ومع ذلك فإن كثيراً من البشر يتخذون الشيطان وذريته مأوى لهم من دون الله: [أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟؟ بئس للظالمين بدلاً؟].

وتبيّن سور أخرى من القرآن ا لكريم أن بعض الناس كانوا يعبدون

الشيطان: [ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون] (سبأ ـ ٤٠، ٤١).

أما أسلوب الشيطان في إضلال من أوى إليه فهو تزيين القبيح في نظره بحيث يراه جميلًا حسناً، ضارباً على وتر الهوى والشهوة، كما في الآيـة [لقـد أرسلنـا الى أمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالهم] (النحل ـ ٦٣)، [وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزينّ لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون] (النمل ـ ٢٤).

٤ ـ متاع الحياة الدنيا: المأوى الفاني:

قلت سابقاً إن متاع الحياة الدنيا وزينتها هو بطبيعته «محايد»، وان أسلوب استعمال الانسان له هو الذي يجعله صالحا أو يجعله مأوى سوء يقطعه عن ربه وأقوم الآن بجولة في السورة استعرض فيها مواطن اتخاذ متاع الدنيا مأوى سوء:

أ ـ لجأ أغنياء قريش إلى ثيابهم الفاخرة المزخرفة فلبسوها طالبين الى الرسول منع فقراء المؤمنين ذوي الثياب البالية من حضور مجلسهم، يدل على ذلك قوله تعالى: [ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا].

ب ـ كذلك لجأ صاحب الجنتين الى ثروته ورجاله، المأوى الفاني، فأوحى إليه هذا المأوى بالاستعلاء على صاحبه المؤمن فقا له: [أنا اكثر منك مالًا وأعز نفرا].

جـ ـ استعمل آدم (عليه السلام) متاع الدنيا استعمالاً خاطئاً، حين أكل من الشجرة المحرمة، فكانت تلك الشجرة بئس المأوى، إذ قطعته عن الله.

المأوى الثلاثي الأثيم:

إن المآوي الثلاثة الأخيرة ـ الهوى والشيطان ومتاع الحياة الدنيا ـ تشكل اقنوماً ثلاثياً أثيماً، يدعم كل جزء منها الجزأين الآخرين.

فالإنســان يجذبه الهوى بطبيعته إلى متاع الدنيا، وهو سّر يعرفه الشيطان تمام المعرفة، فيستثير الإنسان عن طريق الهوى، مغريا إياه بمتاع الحياة الدنيا، ومزيناً له بذلك فعل المعاصي والدخول في الكفر.

وهناك آية واحدة تشير الى هذا المأوى الثلاثي الأثيم، وهي قوله تعالى: [كالذي استهوته الشياطين في الارض].

فقوله «استهوته» يشير إلى اثارة الشياطين للهوى الكامن في نفس الإنسان وقوله «في الأرض» يشير إلى زينة الحياة الدنيا الأرضية ومتاعها.

المـآوي الأخرويـة

تنحصر المآوي الأخروية في مأويين اثنين لا ثالث لهما، وهما:

أ ـ الجنة مأوى الصالحين:

لقد وصف الله الجنة بأنها «مأوى» في سورة النازعات فقال: [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى] (٤١).

وفي سورة الكهف ذكر الله الجنة جزاء للصالحين، ووصفها بأنها «نُزُل» و «مرتفق»: [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً]، [متكئين فيها على الأرائك، نعم الثواب، وحسنت مرتفقا].

والنُزل والمرتفق معنيان قريبان جداً من معنى المأوى. وقد قرن الله بين المأوى والنزل في قوله تعالى: [أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون] (السجدة ـ ١٩)

ب ـ النار مأوى الكافرين:

سمّى الله النار أيضاً مأوى في سورة النازعات فقال: [فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى]. كذلك سماها في سورة الكهف مرتفقاً ونزلاً أيضا، فقال: [إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزلاً] وقال: [إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقا].

المآوي الدنيوية والمآوي الأخروية:

إن العـلاقة بين المآوي الدنيوية والأخروية واضحة: فمن أوى في

الدنيـا الى الله فأطاعه وعمل صالحا، أوى في الآخرة إلى رحمة الله، الجنة. ومن أوى في الدنيا إلى الهوى والشيطان ومتاع الحياة الدنيا، كان مأواه في الآخرة النار.

ممـا سبق يتبيّن لنا أن فكرة «المأوى» أو الملجأ بجميع أشكالها تسري في السـورة كمـا يسري المـاء في العـود، مكونة أحد الأركان الرئيسية للسورة، جاعلة من السورة وحدة متناسقة متكاملة: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا».

لما كانت فكرة «المأوى» أحد الأركان الرئيسية في سورة الكهف، ولما كان المأوى في حقيقته حاجزاً يمنع الشر عمّن يلجأ إليه، لذلك نرى السورة زاخرة بمعاني «الحواجز» و «الحجب» و «السد» و «الغطاء» و «الستار» ـ وهي معان متقاربة.

أنواع الحجب: إن للحجب أنواعاً مختلفة فمنها:

أ ـ الحجب المادية، كالجدران والجبال والبحار والمياه.

ب ـ الحجب العقلية والنفسية، كمثل الخوف الذي هو حجاب نفسي يمنع الانسان من الاقتراب من الخطر، والنسيان الذي هو حجاب عقلي يمنع الانسان من ادراك الحقاق التي نسيها. ولنقم الآن بجولة في السورة نتبيّن فيها ما ورد من الحجب والحواجز:

١ ـ الكهف حاجز: في قصة أصحاب الكهف كان الكهف حاجزاً مادياً منع عنهم اذى المشركين. كما كان «النوم» حاجزاً حجز عنهم وعيهم وإحساسهم بما حولهم «فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا».

كذلك كان منظرهم المخيف حاجزاً أبعد عنهم كل من اتفق أن شاهدهم: [لو اطلعت عليهم لولّيتَ منهم فراراً ولملئت منهم رعبا].

٢ ـ النسيان حاجز: إن النسيان حجاب عقلي يحجب الشيء المنسّي عن عقل الانسان. وقد ورد ذكر النسيان في السورة في الآيات: [واذكر ربك إذا نسيت]، [ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه]، [قال أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما

أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره].

٣ ـ الكفر والغفلة غطاء وحاجز: اذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا أن الكفر معناه «ستر نعمة المنعم». وأن «الكفارة» معناها «ما يغطىٰ به الإثم».

فالكفر ستار وتغطية وحجاب يضعه الكافر بينه وبين ربه. وقد ورد ذكر الكفر والكفار في مواطن عديدة من السورة مقترنةً أحيانا بذكر «الغطاء» أو ما يفيد «الستار»:

أ ـ «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

ب ـ «ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أُنذروا هزوا».

ويلاحظ هنا أن الكفار اتخذوا الجدل والاستهزاء ستاراً يحاولون به تغطية الحق. ومثل ذلك قوله تعالى [ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا].

حـ ـ «وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً. الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا». ويلاحظ هنا أن الآية قد سمّت عمى القلب «غطاء» ويشبه ذلك قوله: [إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا].

د ـ وردت الغفلة في الآية: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا»، فغفلة القلب عن الله حجاب عن ذكره سببه هو حجاب آخر حجاب الهوى: «واتبع هواه».

٤ ـ الظلم حاجز: إن الظالم يمنع المظلوم من الوصول الى حقه، أي يضع بينهما حاجزاً. وقد ورد ذكر الظلم في السورة في الآيات التالية:

أ ـ [فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟].

ب ـ [إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها].

حـ ـ [كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا]، أي لم تحجب منه شيئا.

د ـ [ودخل جنته وهو ظالم لنفسه].

هـ ـ [ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا].

و ـ [أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلا].

ز ـ [ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها؟].

حـ ـ [وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا].

ط ـ [قال أما من ظلم فسوف نعذبه].

٥ ـ الماء (البحر والنهر) حاجز: إن البحر يحجز القارات بعضها عن بعض، والنهر حاجز يفصل بين منطقتين من مناطق الأرض. وقد ورد ذكر الماء والبحر والنهر في الآيات:

أ ـ [أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار].

ب ـ في قصة صاحب الجنتين قوله: [وفجّرنا خلالهما نهرا].

حـ ـ وفي نفس القصة: [أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا]، أي يصبح بينك وبين الماء حاجز يمنعك من الوصول إليه.

د ـ [واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء].

هـ ـ في قصة موسى والخضر: [واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين].

و ـ وفيها ايضاً كان البحر حاجزاً حجب الحوت عن موسى وفتاه بعد أن تسرب الحوت إلى ماء البحر: [فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما

فاتخذ سبيله في البحر سربا].

ز ـ في قصة ذي القرنين ورد ذكر غروب الشمس في عين حمئة، والعين نبع ماء وهي حجاب للشمس.

٦ ـ السفينة حاجز: في قصة موسى والخضر ذُكرت السفينة، وهي حاجز يمنع ركابها من الغرق في البحر: [حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها؟].

٧ ـ الارض حجاب: إن الشمس تظهر نهاراً لكنها تحتجب ليلاً وراء حاجز الأرض وذلك عند الغروب. وقد ذكر الغروب في الآية: [حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة].

٨ ـ الأشجار والجبال والثياب حجب وأستار: في قصة صاحب الجنتين: [جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا].

فالنخيل هنا والزرع حواجز تحجب بظلها أشعة الشمس عن الأؤرض.

وقوله تعالى: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا] يشير ضمناً إلى مرحلة الجنين الواقعة بين مرحلتي «النطفة» و «الرجل»، والجنين يكون مختفيا وراء حواجز جسم أمه.

وفي قصة «ذي القرنين»: [حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا].

وقد ورد للآية تفسيران: أولهما أن المكان الذي بلغه ذو القرنين عند مطلع الشمس كان صحراء مستوية لا جبال فيها ولا شجر تستر أهلها

من الشمس فيأوون الى ظلها، فلا حجاب بينهم وبينها، فالشجر والجبال حواجز. وقد أشير إليها في الآية بكلمة «سترا».

وثاني التفسيرين أن أهل تلك البلاد لم يكونوا يستترون بثياب تحجب الشمس عنهم وكأنّ ذلك في مناطق استوائية شديدة الحر. فالثياب هنا حجب وأستار.

١٠ ـ **«المال والبنون زينة الحياة الدنيا»** ـ إن المال والبنين من أكبر الحجب التي تحول بين الانسان وبين ذكر ربه، وهي كثيرا ما تلهيه وتشغله عن الآخرة.

١١ ـ **الشيطان والهوى حاجزان**: ورد ذكر الشيطان (إبليس) في السورة كما ورد فيها ذكر الهوى والغرور، وهي كلها حواجز تحجب الانسان عن ربه وتحجب رؤية الحق عن عقله: فإن صاحب الجنتين عمي عن رؤية أبسط الحقائق، وهي حقيقة زوال الدنيا وفنائها بسبب اغتراره ببساتينه، فقال [وما أظن أن تبيد هذه أبدا].

١٢ ـ **الظاهر حجاب للباطن**:

كما أن للثمرة قشرة ظاهرية تحجب لبّها الباطني، كذلك هناك أعمال، لها ظاهر يحجب باطنها، ومن هذا القبيل الأعمال التي قام بها الخضر أمام موسى، فاعترض موسى على ظاهرها لأن باطنها الحكيم كان محجوباً عنه، فقد ثقب الخضر سفينة المساكين، وهو عمل ظاهره الضرر، لكن باطنه المحتجب هو حماية السفينة من اغتصاب الملك لها. كما قتل الخضر الغلام، وهو عمل ظاهره القسوة والظلم، وباطنه المحتجب هو الرحمة بوالديه المؤمنين. وبنى الخضر الجدار للقوم الذين

أبوا أن يضيّفوهما، وهو عمل ظاهره الإحسان إلى من لا يستحق الإحسان، مما يجانب الحكمة، وباطنه المحتجب الرحمة باليتيمين بحفظ كنزهما لهما.

شاعت حكمة الله تعالى أن تكون الحياة الانسانية مزدوجة الطبيعة، ثنائية القوى متضادة الاتجاه الا يتناوب في حياتنا كلها ظلال الليل ونور النهار؟ ألا يخلق الانسان من ذكر وأنثى، ألا يسيطر على قوم العلم، ويسيطر على قوم الجهل؟

وقد تبيّن لنا فيما سبق أن سورة الكهف قد عالجت بعض هذه الثنائيات المتضادة كالمآوي الصالحة والمآوي السيئة، والشكر والكفر، والصبر والجزع.

كما تبيّن لنا أن الله هو المأوىٰ الوحيد للانسان يلجأ فيه الى رحمته تعالى فراراً من نقمته وعذابه، والى قوته سنداً لضعفه، والى عمله يمحو به جهله، والى نوره يضيء به ظلمات نفسه.

ومن هنا جاءت سورة الكهف العظيمة تحوي كثيراً من الثنائيات المتضادة تفصّلها وتبيّن أبعادها، وتدعو إلى الصالح منها وتنفّر من سيّئها.

فلنشرع بتتبّع عدد من هذه الثنائيات في السورة مبتدئين بالشروق والغروب، النور والظلام، الظهور والاختفاء.

شروق وغروب، نور وظلام، ظهور واختفاء

إذا تأملنا معاني الشروق والنور والظهور، وجدناها متلازمة متقارنة، حتى لكأنها ذات معنى واحد. فإن الشروق يؤدي الى انتشار النور، وانتشار النور يلازمه ظهور الأشياء.

وقل مثل ذلك عن الغروب والظلام والاختفاء.فإن الغروب يتبعه

الظلام، وبالظلام تختفي الأشياء.

وقد شاءت حكمة الله أن تحدث هذه الظواهر بشروق الشمس وغروبها، ومع شروقها وغروبها تظهر أحداث عظام أو غير عظام كانت مختفية، وتشرق أنوار ساطعة او ضعيفة كانت غاربة، وتظهر كائنات مادية او معنوية او تختفي. فولادة كائن جديد كحيوان أو نبات أو إنسان هو اشراق للحياة، وموته هو انطفاء وإظلام لشعلة الحياة فيه.

وقد يكون ما أشرق فملأ نوره الكون كتابا أو ديناً أو سّراً من الأسرار الالهية العجيبة، وهو أخطر بكثير من اشراق شمس أو ظهور حياة لنبات او حيوان أو انسان عادي، رغم أن ظهور الشمس وغروبها وتعاقب الليل والنهار واختلافهما، وولادة بعض الأحياء وموت بعضها، هي من آيات الله الدالة على قدرته الجبارة وعلمه الواسع، والتي قد تكرر ذكرها في كتاب الله كقوله تعالى: [تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي] (آل عمران ـ ٢٧).

وإن ما يلفت النظر أيضا في إشراق الشمس وغروبها دقة مواعيد ظهورها واختفائها المتناهية، حتى إننا نضبط ساعاتنا على إشراقها وغروبها، وهذا الانتظام الدقيق أمر عجيب يشير إشارة واضحة الى فعل الله وتدبيره لهذا الكون الذي تجري أحداثه بمواعيد مضبوطة لا تتبدل.

كل هذه المعاني من شروق وغروب وظهور بعد اختفاء او اختفاء بعد ظهور، ومن مواعيد مضبوطة تتم فيها الأحداث ـ كل ذلك قد ورد في سورة الكهف بشكل متكرر، وكأن السورة كلها سورة النور والظلام والاشراق والغروب والظهور والاختفاء.

١ ـ الكتاب الكريم يشرق والرسول الأمين ينير:

لقـد أشرقت الشمس وغـربت، فانقضت سنـون ودهور وأجيال، واختفت أمم وظهـرت أمم، وآن أوان المـوعد الأعظم، فأشرق نوران هائلان كانا مختفيين عن أهل الأرض فظهرا: أشرق نور القرآن [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيماً]، مستقيماً لا انحراف فيه، مستقيماً كاستقامة شعاع الضوء، أشرق كتاب الله [قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السـلام ويخـرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم] (المائدة ـ ١٥، ١٦).

وأشرق رسول الله وعبده [أنزل على عبده الكتاب]، ورسول الله نور عظيم: [يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا]. (الأحزاب ـ ٤٥، ٤٦).

كتاب الله ورسول الله أشرقا وظهرا بعد اختفاء، كتاب الله ورسول الله نور على نور، أضـاءت لهمـا الظلمات، وارتوت باشعاعهما قلوب الملايين من البشر المتعطشين إلى الهدى.

أشرق القـرآن بحكمه البليغة وأمثاله البديعة التي بيّنت كل شيء ينفـع الانسـان: [ولقـد صرفنـا في هذا القرآن للناس من كل مثل]، [ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أُنذروا هزوا].

إن جنـود الظلام يحاولون ان يطفئوا نور القرآن المتدفق بدخان الجدل الفارغ وبغبار الاستهزاء السخيف، ولكن الله متم نوره، ولو كره الظالمون المظلمون، ولن تختفي شمس القرآن بعد أن أشرقت.

هذا القرآن مدّ من كلمات، هي بحر من النور لا ينتهي: [قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا

بمثله مددا].

هذا القرآن المنير جاء ليبشر وينذر: ليبشر بأنوار نعيم الجنة وينذر من ظلمات عذاب الجحيم: [ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا] [اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار].

والجنّـة التي يبشر الله بهـا المـؤمنـين مشرقة بالأنوار: [يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها] (الحديد ـ ١٧).

والقـرآن ينـذر الكافرين بالنار: [إنا أعتدنا للظالمين نارا]، والنار مظلمة. ألا ترى أهلها يستنجدون بأهل الجنة ليفيضوا عليهم شيئاً من نورهم: [يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم] (الحديد ـ ١٣).

أولا ترى كيف يشكو الكافر يوم القيامة من العمى والظلام الذي أغرق نفسه فيه بغفلته عن ذكر ربه في الدنيا: [ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربّ، لِمَ حشرتني أعمى وقـد كنت بصيرا؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسىٰ؟] (طه ـ ١٢٤ ـ ١٢٦).

٢ ـ المسيح: ظهور عجيب واختفاء عجيب:

لقـد أنذرت السورة الذين «قالوا اتخذ الله ولدا» وهي إشارة الى المسيح عليه السلام الذي كان ظهوره في الدنيا آية عجيبة من عجائب الله، كما كان اختفاؤه آية أخرى عجيبة. ذلك أن المسيح قد ولد من أم وبلا أب، وتكلم في المهد صبيّا، فكان ظهوره عجيباً. ثم أدى رسالته، وفي ختامها رفعه الله إليه حينما حاول اليهود صلبه: [وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم]، فكان اختفاؤه من مسرح الأحداث الدنيوية

عجيباً أيضاً..؟

وقد استنتج بعض الناس من ولادته العجيبة بلا أب أباه هو الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فالله ليس بحاجة الى الولد ولا إلى الشريك في الألوهية، سبحانه وتعالى عما يصفون.

٣ ـ الاختفاء والظهور في قصة اصحاب الكهف:

لقد اختفىٰ أصحاب الكهف بعد ظهورهم، اختفوا في فجوة من كهف مظلم لا يكاد نور الشمس يقترب منه: [وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه].

تشرق الشمس وتغرب، وأصحاب الكهف مختفون في ظلام مادي، وإن كانوا في الحقيقة منغمرين في بحار من النور، نور الإيمان يملأ قلوبهم، نور الثقة برحمة الله ينسيهم ظلام الكهف: [فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من امركم مرفقاً].

ثم حدث لهم اختفاء على اختفاء؟ [فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا].

كانـوا مختفـين في ظلمـات الكهف وحدها، فأصبحوا مختفين في ظلمات النوم الطويل؟ اختفى وعيهم كله، وانقطع إحساسهم بأنفسهم وبما حولهم.

لقـد أشرق نور الحق في قلبهم، فصمدوا في وجه أعتى الظلمات: ظلمات ظلم مضطهديهم الوثنيين، وظلمات الكهف، وظلمات النوم الطويل.

وانتهت الظلمات فبعثهم الله من نومهم، فأشرق نور وعيهم، وكانت قد اختفت ظلمات الوثنية وانقرضت أجيالها، وأشرقت أنوار الإيمان في

الأجيال الجديدة.

وببعثهم ظهـرت حقيقـة كبـرى مشرقة كانت خافية على كثير من النـاس، حقيقة قدرة الله على بعث الموتى يوم القيامة [وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها].

٤ ـ نور فقراء المؤمنين وظلام أغنياء المشركين:

فقراء المؤمنين فتية أشرق نور الايمان في قلوبهم، وان اختفت الثروة من أيـديهم، وإن اختفت الأنـاقة من ثيابهم. تشرق الشمس عليهم وتغرب، فيرون في شروقها بالغداة، وغروبها بالعشي، قدرة الله العظيمة تتجلى، ويظهر لهم إبداعه في سطوع نورها عند الضحى، وجمال حمرة شفقها عند غروبها، فيتماوج في قلبهم نور الإيمان، فيلجؤون الى ربهم داعين ضارعين إليه أن يرحمهم ويتم نعمته عليهم: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه].

أما خصومهم، أغنياء قريش، الذين طلبوا طردهم من مجلس رسول الله (ﷺ)، فقد عشّشَ ظلام الكفر والاستكبار في قلوبهم بفعل الغرور والهوى، واختفى نور الايمان وذكر الله من نفوسهم [ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا].

٥ ـ النور والظلام في قصة صاحب الجنتين:

تعـرض هذه القصة اختفاء نور الايمان في قلب صاحب الجنتين وسيـطرة ظلام الكفـر عليـه، بينما تعرض نور إيمان صاحبه الذي أخلص له النصح ونهاه عن الإخلاد إلى الدنيا.

كما أن القصة تحوي اختفاء ثمار جنته المفاجىء [وأحيط بثمره]، بعد أن كانت بساتينه مشرقة بأشجارها وثمارها ومياهها.

وأخيراً تعرض القصة اختفاء غروره بعد أن أصابته النكبة، وظهور ندمه على ما أسلف من كفر.

٦ ـ الحياة الدنيا: ظهور واختفاء سريع:

إن أهم صفات هذه الحياة الدنيا أن متاعها يظهر حلواً مزداناً، لكنه سريع الزوال: [إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها... وانا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا]. «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح... المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

الماء يظهر مطراً ثم يختفي، والنبات يظهر ثم يختفي، والمال يكسبه الإنسان فيظهر بين يديه، ثم يختفي بالإنفاق، والبنون يظهرون لوالديهم بعد اختفاء، ثم يختفون عن والديهم أو يختفي والدوهم عنهم...

٧ ـ الآخرة تظهر بعد اختفاء الدنيا:

بعد اختفاء الدنيا تظهر الآخرة، وتظهر معها أحداث خطيرة كانت مختفية عن المشركين، فيصابون بالذهول لهول المفاجأة، وتنخلع قلوبهم لشدة الجزع والحسرة.

أ ـ إن أول مفاجأة تظهر لهم هي بعثهم من قبورهم ومشاهدتهم للأحداث الكونية العنيفة كتسيير الجبال: [ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا] وهي إشارة مقتضبة إلى بعض تلك الأحداث، التي فصّلتها سور أخرى فذكرت تكوير الشمس وانتثار النجوم وتفجر البحار وغيرها.

ب ـ سيظهر للكافرين صدق وعد الله لهم، وسيعرضون على ربهم مكشوفين ظاهرين لا تخفى منهم خافية: [ولقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة]، أي عراة كما نزلوا من بطون أمهاتهم، [وعرضوا على ربك صفا... بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا].

حـ ـ «ووضع الكتاب، فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟؟».

الآن اختفى الأمن والغرور والاستكبار الذي كانت تشعر به نفوسهم في الدنيا، وظهر مكانه الاشفاق والهلع والذل والندامة، بعد أن ظهرت أمامهم أعمالهم السيئة بأسرها، كبيرها وصغيرها، مسطّرة عليهم في كتابهم، بعد أن أخفاها عليهم النسيان: [يوم يبعثهم الله جميعاً، فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه] (المجادلة ـ ٦).

د ـ «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم، فلم يستجيبوا لهم» ـ لقد ظهرت حقيقة شركائهم، وانكشف لهم عجز آلهتهم الباطلة عن نجدتهم في ضيقهم ومحنتهم، إنه اليأس يظهر في نفوسهم فيملؤها حسرة.

هـ ـ «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مصرفا» ـ لقد ظهرت لهم النار بعد اختفاء، وظهر لهم أنهم سيتخذونها مأواهم.

٨ ـ الظهور والاختفاء في قصة موسى والخضر:

إن معاني هذه القصة الرائعة أيضاً مع جو السورة العام، جو الاشراق والغروب، جو الظهور بعد الاختفاء، والاختفاء بعد الظهور.

أ ـ تبدأ القصة برحلة موسى (عليه السلام) العلمية الى الخضر. والسفر انتقال من مكان الى مكان آخر، وهذا يعني اختفاء المكان الأول عن

عيني المسافر، وظهور المكان الثاني أمامه.

ب ـ نسي موسى وفتاة الحوت عند الصخرة، والنسيان اختفاء أمر ما عن ذهن الانسان.

حـ ـ تسّرب الحوت الى البحر فاختفى فيه بعد أن كان ظاهراً: [فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا].

د ـ إن خرق الخضر للسفينة الجميلة إخفاء لجمالها الذي كان ظاهراً، وإظهار لعيب لم يكن فيها، وذلك منعاً للملك الظالم من أن يغتصبها من أصحابها.

هـ ـ إن قتل الخضر للغلام أدى إلى اختفائه في بطن الأرض بعد أن كان حياً على ظهرها.

و ـ إن دعم الخضر للجدار الذي تحته الكنز، إبقاء للكنز مختفياً تحته، حتى يبلغ اليتيمان أشدهما وتظهر قوتهما، فيظهر الله لهما كنزهما.

ز ـ وأخيرا، إن القصة كلها تدور حول إظهار حكمة الله في هذه الأحداث الثلاثة بعد أن كانت حكمته تعالى مختفية عن ذهن موسى (عليه السلام).

٩ ـ الظهور والاختفاء في قصة ذي القرنين:

أ ـ قطع ذو القرنين الأرض من مغربها الى مشرقها، فهذه إشارة الى شروق الشمس وغروبها واختفائها بعد ظهورها. كذلك فإن ارتحال ذي القرنين من قطر الى قطر يعني ـ كما بيّنت سابقاً ـ اختفاء البلاد التي يغادرها عن ناظريه وظهور البلاد التي يصل إليها.

ب ـ بنى ذو القرنين السد، فظهر هذا السد الشامخ بعد أن لم يكن، ثم يختفي يوم القيامة:

[فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً].

كما أن ظلم يأجوج ومأجوج لجيرانهم اختفى ببناء السد، بعد أن كان ظاهراً.

١٠ ـ الظهور والاختفاء في أواخر السورة:

[قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا]، تظهر كلمات الله، وتظل تظهر بلا نهاية، أما البحار فتختفي بحراً إثر بحر، من جراء استهلاكها في كتابة كلمات الله التي لا تنتهي.

١١ ـ المواعيد والأوقات:

سبق أن قلت إن شروق الشمس وغروبها مرتبط بمواعيد دقيقة وأوقات مضبوطة، فالفترة التي بين شروقين متتالين هي «يوم»، وباليوم تقاس الأزمان والمواعيد، وهي أيضا إذا طالت تقاس بمضاعفات اليوم. فالسنة القمرية (٣٥٤) يوما تقريباً، والسنة الشمسية تبلغ (٣٦٥) يوماً تقريباً.

وقد عالجت سورة الكهف هذه القضية، إذ ذكرت أن مدة لبث أصحاب الكهف في كهفهم بلغت ثلاثمئة سنة شمسية، كما بلغت ثلاثمئة وتسع سنين قمرية: [ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعا].

وهكذا فإن أصحاب الكهف قد حان موعد بعثهم من نومهم بعد ثلاثمئة سنة شمسية من بدء سباتهم.

الموعد الأعظم: يوم القيامة:

حرصت السورة على ذكر هذا الموعد الأعظم مكررة إياه، بل إن قصة أصحاب الكهف كلها تدور العبرة منها حول إثبات قدرة الله على بعث الناس يوم القيامة: «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها].

كما ورد ذكر ذلك الوعد الحق في الآيات: [ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض بارزة...ولقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا».

[ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم].

[وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا].

وورد ذكره على لسان ذي القرنين إذ قال: [أما من ظلم فسوف يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا]. كذلك عندما أتم بناء السد [قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا].

الله يحدّد المواعيد: اذا خطر ببال إنسان أنه سيقوم بفعل شيء في يوم قادم محـدد، فإنه لا يستطيع ان يجزم بذلك، لأن أمر أحداث هذا الكون لا يملكه الا الله، فهو تعالى وحده الذي يقرر حدوثها في مواعيد معينة يحدّدها هو. فالمواعيد لله:

[ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله].

أطوار الجنين مواعيد: يخلق الله الناس أطواراً. فأصل خلق الانسان من تراب ثم خلقه الله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وهكذا حتى

يخرج من بطن أمه طفلاً، ثم يصبح فتى ثم يكون رجلاً سويا. ولكل طور من هذه الأطوار موعد يبدأ عنده وموعد آخر ينتهي عنده. وقد أشارت السورة الى ذلك في الآية: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟].

لقاء الله موعد: [فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا].

ـ المؤمن يرجو أن يلقى ربه، والله يعد المؤمن بهذا اللقاء، فهو موعد، لكنه موعد مرتبط بشروط، هي عدم الشرك بالله، والعمل الصالح. والأعمال الصالحة الرئيسية المفروضة من صلاة وزكاة وصيام وحج، كلها لا تصح إلا بمواعيد معينة، فالصلاة لها الأوقات الخمسة، والزكاة لها موعد هو أن يمضي عام على نصابها، والصيام موعده رمضان من كل سنة والحج موعده ذو الحجة من كل عام.

فمن صدق في مواعيده مع الله في هذه الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا، صدقه الله وعده بلقائه، لقاء رضوانه ونعيم في جنته في الآخرة.

العلم والجهل

من الثنائيات المتضادة التي عالجتها سورة الكهف: العلم والجهل.

والعلم علمـان: علم الله الشامل اللانهائي الحقيقي، وعلم الخلق الضئيل المستعار.

فالخـلق جميعهم في أصـل طبيعتهم جاهلون، إلا أن يفيض الله عليهم ما شاء من علمه. وعلم الخلق هذا معرّض دائماً للزوال. وقد أشارت سورة الكهف الى ذلك حين ذكرت أن أصحاب الكهف حينما

أفاقوا من نومتهم الطويلة، لم يعلموا مدة نومهم، وظنوها يوماً أو بعض يوم.

كما أن الناس حاولوا معرفة عدد أصحاب الكهف ومدة لبثهم نياما، لكن طبيعة البشر المفتقرة الى العلم الأصيل جعلتهم يختلفون اختلافاً كثيرا: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب»، «ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع».

فعلم الله وحده هو العلم الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو علم ليس له حدود: [قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا]، والكلمات هنا توحي بعلم الله تعالى غير المحدود.

فعلى الانسان الجاهل أن يلجأ الى الله ليجد عنده العلم النافع، فالله مأوى علمي للانسان.

مصادر علم الخلق: لا بد للخلق من مصادر يستقون منها ما شاء الله من علمه، وهي:

أ ـ الإلهام أو التعليم الالهي المباشر:

وقد أشارت السورة الى ذلك حين ذكرت قصة سجود الملائكة لآدم. واذا عدنا الى هذه القصة موسّعةً في سور أخرى وجدنا فيها أن الله بعد أن خلق آدم علمه الأسماء كلها [وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة] (البقرة ـ ٢٣)، وهذا تعليم إلهامي مباشر من الله.

وتذكر السورة أيضاً أن الله علّم الخضر تعليماً لدنّياً مباشراً: [فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما].

فبهذا العلم اللدني الإلهامي عرف الخضر أن الغلام الذي قتله سيكون كافراً مُرهقاً لوالديه الصالحين حينما يصبح شاباً.

ب ـ التعليم بالكتب:

إن كتب الله تعالى تحوي من العلوم الخيّرة التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم. وقد أشارت السورة الى ذلك بقوله تعالى [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب] وقوله [واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته] وقوله [ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل].

حـ ـ التعليم عن طريق الرسل والصالحين:

أشارت السورة الى ذلك بالآية [وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين].

ولحكمة يعلمها الله جعل أحد كبار الرسل وهو موسى (عليه السلام) تلميذاً لأحد الصالحين وهو الخضر (ع) يتعلم منه بعض أسرار قدر الله وتصريفه لشؤون هذا الكون.

د ـ التعليم عن طريق التفكير بالعقل بالاستناد إلى الحواس:

إن الانسان يستمدّ كثيراً من علمه عن طريق حواسّه من بصر وسمع وشم وذوق ولمس، فهو يجمع ما تعرضه له حواسه من مؤثرات ثم ينسّق بينها بوساطة عقلة وتفكيره ويخرج من كل ذلك بالحقائق الكلية أو الجزئية التي تكوّن علمه.

وقد ذكرت السورة أن تعطيل الحواس يعطل علم الانسان. فقد عطّل الله حواس فتية الكهف بنومهم [فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا] فتعطل علمهم، فلم يدركوا مقدار الفترة التي قضوها

نائمين، وظنوا أنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم.

وذكرت السورة أيضاً أن حاسة البصر إحدى وسائل العلم: [ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا] أي أنهم حينما شاهدوا النار بأبصارهم علموا أنهم سيدخلونها حتماً.

كما ذكرت أن تعطيل السمع والبصر يعطل علم الكافر ويوقعه في الجهل: [وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا، الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا].

العقل مصدر للعلم: جعلت السورة للعقل دوراً كبيراً في التوصل الى معرفة الله تعالى. ففي قصة صاحب الجنتين قال له رفيقه المؤمن: [أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا؟]، فهو يطلب إليه ان يستنتج علمه بوجود الله من تفكيره بهذا الجهاز الرائع وهو جسمنا. فنحن نشاهد بأبصارنا كيف كان الانسان نطفة حقيرة لا حول لها ولا قوة، ثم نما بالتغذي من الأطعمة (التي أصلها من نبات الأرض الترابيّ المنشأ) حتى غدا رجلاً سوياً قوياً يرى ويسمع ويمشي ويعقل ويصنع ويقاتل.

فالعقل يحكم عند مشاهدة هذه الظاهرة الفريدة بأن لها صانعاً مبدعاً في تدبيره، قادراً في صنعه، وهو الله تعالى.

كذلك بيّنت السورة دور العقل في الحصول على العلم، وذلك على لسان أصحاب الكهف المؤمنين، الذين عابوا على مواطنيهم الوثنيين عبادتهم لآلهتهم دون الاقتناع ببرهان (سلطان) واضح يملك العقول بقوة حجته «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟؟».

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية «أي هلّا اقاموا على

صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً». ومن المعلوم أن إقامة الدليل على شيء عملية عقلية.

جهل الإنسان ومصادره: كما ذكرت السورة مصادر علم الانسان، فإنها ذكرت مصادر جهله، والأسباب التي تحول بينه وبين الحصول على العلم النافع. ومصادر الجهل هي:

١ ـ التقليد الأعمى للآباء:

أشارت السورة إلى أن الذين قالوا بأن لله ولداً قد حرموا العلم باتباعهم الأعمى لآبائهم: [وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ما لهم به من علم ولا لآبائهم].

٢ ـ الهوى والشهوة والغرور مصدر للجهل:

إذا غشي الهوى القلب أسره وحجب عنه العلم وتركه فريسة للجهل، يتخبط ذات اليمين وذات الشمال، فيقع في أوخم العواقب.

أ ـ فمن ذلك ما أشارت إليه السورة في قصة آدم وابليس الذي أظهر عداوته لآدم في حادثتي السجود لآدم والأكل من الشجرة، فقد سيطرت شهوة الطعام على آدم فأنسته مقام ربه [ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما] (طه ـ ١١٥).

فأكل من الشجرة المحرمة. والنسيان نوع من الجهل.

ب ـ ومن ذلك سيطرة الغرور على صاحب الجنتين، الذي اغتر ببساتينه وثماره، فظنّ أن الحياة الدنيا خالدة لا تزول وأن بساتينه باقية لا تفنى فقال: [ما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظنّ الساعة قائمة]، وهو جهل

واضح.

حـ ـ ومن ذلك الهوى الذي أعمى وجهاء كفار قريش الذين طلبوا الى الرسول أن يطرد فقراء المؤمنين من مجلسه [ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا]. فاتباع الهوى دفعهم إلى الغفلة عن ذكر الله أي عن معرفة الله والعلم به.

د ـ ومن ذلك سيطرة حب الاستهزاء ومحاولة إثبات التفوق العقلي على الآخرين، وهو نوع من أنواع الهوى والاستعلاء. ذكرت السورة ذلك حين بيّنت أن الكفار يحاولون البرهان على باطلهم بالاستهزاء والجدل مستعملين عبارات منمّقة براقة، لتغطية الحقائق التي يأتيهم بها الرسل: [ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا].

هـ ـ ومن ذلك اغترار الكفار بعقولهم وذكائهم بحيث يظنون أنهم لا يخطئون أبدا وأنهم دائماً على الهدى والحق: [قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟].

٣ ـ الشيطان من مصادر الجهل:

فالشيطان أعظم عدوّ للإنسان، لذلك فإنه يحاول أن يوقعه في العذاب والكوارث، ويستغل هوى الانسان وشهوته، فيغريه بالعمل السيء، ضارباً على عقله غطاء من النسيان [وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره]. فيجهل ما كان قد علم، كما حدث لأبينا آدم الذي علّمه الله ما لم يعلم الملائكة، لكنه بوسوسة من الشيطان نسي علومه كلها وأكل من الشجرة.

إن الله تعالى هو المأوى الرحيم للانسان، يغدق عليه نعمه وفضله منذ أول خلقه حتى يصبح رجلاً سويا [الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً]، ثم يرحمه بإفاضة رزقه عليه من مال وبنين: [المال والبنون زينة الحياة الدنيا]. وقد انتشرت فكرة «الرحمة» في السورة، كما انتشرت الفكرة المضادة لها «العذاب» أو النقمة التي تصيب الانسان في الدنيا أو الآخرة.

مواطن الرحمة في السورة:

١ ـ كتاب الله ورسوله أعظم رحمة.

وقد ذكرهما الله في مطلع السورة فقال [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب]، كما ذكرهما في ختامها فقال: [قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد].

وكتاب الله يفيض بالرحمة: [إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين] (النمل ـ ٧٦، ٧٧).

وأما رسوله (ﷺ) فقد أرسله الله رحمةً للعالمين: [وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين] (الانبياء ١٠٧).

٢ ـ رحمة الله لرسوله ورحمة الرسول لقومه:

كان رسول (ﷺ) شديد الرحمة لقومه، شديد الحرص على إخراجهم من الظلمات إلى النور، شديد الخوف عليهم من الوقوع في

عذاب جهنم. ولما رأى صدودهم العنيد عن دعوته أصابه الهمّ الشديد حتى كاد يهلك نفسه حزناً عليهم وإشفاقاً، فأنزل الله عليه آيات تهدىء من روعه، وتخفف من همه رحمةً به، فقال له: [فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا] وهوّن عليه ذلك بأن ذكّره بأن قدَر الله وقضاءه اقتضيا أن يجعل الأرض وزينتها ابتلاءً وامتحاناً للبشر.

وتذكير الله لرسوله (ﷺ) بالقضاء والقدر هو رحمة به (ﷺ). إذ أن الايمان بالقضاء والقدر وبحكمة الله في تصريف أحداث الكون يطمئن القلب ويخفف عنه الهم والحزن وقد ورد ذكر الله وقضائه ايضاً فيما بعد في الاحداث المثيرة التي جرت على يد الخضر (ع).

٣ ـ رحمة الله يطلبها أصحاب الكهف:

حينما عزم الفتية المؤمنون على اللجوء الى الكهف هرباً بدينهم من الملك الوثني الظالم، كانوا موقنين برحمة الله، فسألوه أن يرحمهم: [إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا].

٤ ـ رحمة الله لفقراء المؤمنين:

[واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشّي يريدون وجهه] ـ أمر الله رسوله أن يحرص على مجالسة فقراء المؤمنين، وهو تكريم عظيم لهؤلاء الصالحين وتطييب لنفوسهم ورحمة بالغة بمشاعرهم واستجابة لطلبهم رحمة الله: [يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه].

٥ ـ رحمة الله للبشر برزقهم وتسوية خلقهم:

خلق الله البشر وهيأ لهم أرزاقهم التي تصدّ عنهم آلام الجوع والعطش وأذى العري والحفاء، فأنزل من السماء المطر وأجرى الأنهار وانبت النبات في الأرض رحمة بالناس.

وقد أشارت السورة الى ذلك في المواطن التالية:

أ ـ لقد أغدق الله الرزق برحمةٍ منه على صاحب الجنتين فأعطاه الشجر والثمر والنهر.

ب ـ ذكر الله رحمته للناس بانزال المطر فقال: [واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض].

حـ ـ رحم الله الناس بإيتائهم المال والبنين [المال والبنون زينة الحياة الدنيا]

د ـ رحم الله البشر بتسوية خلقتهم، فجعل أجسامهم ملبيةً لحاجاتهم الدنيوية، معينةً لهم على كسب رزقهم بالعمل في الزراعة والصناعة وغيرها، وجعل عقولهم معينة لهم على تدبير ذلك. [الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا].

٦ ـ رحمة الله للمشركين بإمهالهم:

من رحمة الله بالمشركين العصاة عدم التعجيل بعذابهم وإهلاكهم، وذلك لإتاحة الفرصة لهم للرجوع عن كفرهم: [وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب].

٧ ـ الخضر موطن من مواطن رحمة الله:

لقد وصف الله الخضر بقوله: [فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا]، وقد تجلت رحمته في الأحداث الثلاثة التي أثارت اعتراض

موسى:

أ ـ ففي الحادث الأول يخرق الخضر السفينة ليعيبها فلا يصادرها الملك الظالم. وبـذلك تبقى السفينـة لأصحابها المساكين. وهذا من أعمال الرحمة بالمساكين.

ب ـ وفي الحادث الثاني يقتل الخضر الغلام رحمةً بوالديه المؤمنين، فإنه لو كبر وأصبح شاباً لأرهق والديه طغيانا وكفرا، فأبدله الله «خيراً منه زكاةً وأقرب رحما».

حـ ـ وفي الحـادث الثـالث دعم الخضر الجدار ليحفظ الكنز الثمين لليتيمين حتى يكبرا: [فأراد ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربك].

٨ ـ رحمة ذي القرنين لرعاياه:

أ ـ عدل ذو القـرنين بين رعاياه فعذب الظالم ورحم المؤمن الصالح فأحسن إليـه، والعـدل في حد ذاتـه رحمة عظيمة للناس تحفظ لهم حقوقهم وتبعث الطمأنينة في نفوسهم.

ب ـ منع ذو القرنين طغيان يأجوج ومأجوج، فقام دون أن يأخذ أجراً ماديا ببناء السد العظيم، فحفظ جيرانهم من ظلمهم ونسب إتمام السد الى رحمة الله: [قال هذا رحمة من ربي].

٩ ـ الجنة مستقر رحمة الله:

[إن الذين آمنـوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا].

العـذاب والنقـمة

لنقم الآن بجولة في السورة نبحث فيها عن المواطن التي ورد فيها ذكر العذاب والنقمة، غير ناسين أن الصالحين، وحتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد يتعرضون الى بعض العذاب في الدنيا على سبيل الابتلاء وتمحيص القلوب ورفع الدرجات.

١ ـ كتاب الله نذير بالنقمة والعذاب للعصاة والمشركين: [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب... قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه].

٢ ـ ذكرت السورة العذاب النفساني الشديد الذي أصاب الرسول (ﷺ) لفـرط حزنه على الكفار وخوفه عليهم من عذاب جهنم: [فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا].

وهذا العذاب من قبيل الابتلاء ورفع الدرجات.

٣ ـ عندما طلب المشركون طرد فقراء المؤمنين من مجلس رسول الله، نهـاه الله عن ذلك وذمّ المشركين واصفاً إياهم بالغفلة واتباع الهوى والوقوع في الافراط والتفريط. وهذه صفعـة أليمة لهم عانوا منها عذابا نفسيا كبيرا.

٤ ـ ذكرت السورة عذاب الله الشديد للكافرين يوم القيامة: [إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا].

٥ ـ ذكرت السورة النقمة التي أصابت صاحب الجنتين بعد إصراره على الكفر، فقد محق الله ثماره [وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها] وهي ضربة شديدة الإيلام جعلته يقلب كفيه حسرة وندامة.

٦ ـ صيحة الفزع «يا ويلتنا»، التي يطلقها المجرمون يوم القيامة، تنم عن الرعب والهلع من العذاب الرهيب الذي ينتظرهم: [ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها].

وتشبه ذلك الحسرة وخيبة الأمل التي يشعر بها المشركون يوم القيامة، حينما يطلب اليهم الله ان يدعوا آلهتهم الباطلة لعلها تنقذهم من عذاب الله، لكنها لا تستجيب لهم، وهكذا أُغلق في وجوههم أمل النجاة الوحيد فوقعوا في عذاب اليأس وحسرة القنوط.

٧ ـ من سخف الكفار أنهم كانوا يطالبون رسلهم بأن يدعوا ربهم أن يوقع العذاب بالكفار أنفسهم. وذلك ليتأكدوا من أنهم فعلاً مرسلون من عند الله: [وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنّة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا].

٨ ـ أهلك الله القرى الظالمة وعذبها: [وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا].

٩ ـ قصة موسى والخضر فيها نوع من أنواع الابتلاء المؤلم الذي يمتحن الله به الأنبياء ويرفع درجاتهم. وأول ذلك ما لقيه موسى (عليه السلام) من التعب في رحلته: [لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا] ثم المضايقات التي كان يشعر بها فتثير غيظه حينما يشاهد تصّرفات الخضر الشاذّة في رأيه كخرقه للسفينة وقتله للغلام ودعمه للجدار، فيتفوّه بألفاظ تنم عن هذا الغيظ كقوله: [لقد جئت شيئاً إمرا ـ لقد جئيت شيئاً نكرا].

١٠ ـ ذكرت السورة عذاب ذي القرنين للظالمين: [أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا].

عالجت سورة الكهف هاتين الثنائيّتين في المواطن التالية:

١ ـ كتاب الله مصدر الحق والعدل والاستقامة، وهو بريء من الاعوجاج والباطل: [الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً].

٢ ـ إن الشرك بالله تعالى وادعاء الولد له سبحانه من أعظم الأمور ظلماً، وهو أبطل الباطل وأكذب الكذب: [وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا... إن يقولون إلا كذبا]. «هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة.. فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟».

٣ ـ أصحاب الكهف أصابهم ظلم الملك الوثني الذي أراد أن يكرههم على اتباع دينه الباطل.

٤ ـ إن بعث الموتى حق، وقد أتت قصة بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل آية على هذا الحق.

[وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها].

٥ ـ أمر الله لرسوله بمجالسة فقراء المؤمنين وايثارهم على أغنياء المشركين، عدل وحق، إذ من العدل والحق إكرام المحسن ومن الظلم إهانته بالطرد.

٦ ـ مكافأة المؤمنين الصالحين بالجنة ونعيمها، ومجازاة الكفار الظالمين بعذاب النار، هما من العدل والحق: [وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين ناراً.. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات... اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار].

٧ ـ صاحب الجنتين ظلم نفسه إذ كفر بالله وأشرك به واستكبر على رفيقه المؤمن، ومجازاة الله له بتدمير ثمار بستانه كان جزاء حقاً وعدلا.

٨ ـ متاع الحياة بطبيعته فانٍ وزائل كمثل الهشيم الذي تذروه الرياح، فمن الباطل الركون إليه.

٩ ـ يقتضي العدل والحق من الحاكم العادل أن يبيّن للمحكومين حقوقهم وواجباتهم، قبل أن يحملهم المسؤولية وقبل أن يؤاخذهم بما فعلوا. وقديما قالوا: «لقد أعذر من أنذر» والقرآن الكريم كتاب أنزله الله على رسوله «ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا».

كما أن الحاكم العادل يقوم بمحاكمة الرعية قبل ان يجازيهم على أعمالهم، فيثبت للمجرم إجرامه بالوثائق والمستندات. وهذا ما أعلنته السورة إذ كشفت الستار عن مشهد رهيب من مشاهد يوم القيامة، فبيّنت أن المجرمين يُرَون أعمالهم التي اقترفوها في حياتهم الدنيا، صغيرها وكبيرها، مسجلةً عليهم في كتاب خاص: [ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها].

١٠ ـ من استبدل بولاية ربه ولاية الشيطان وذريته كان ظالماً [أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟؟ بئس للظالمين بدلا؟].

١١ ـ من ظلم المشركين لأنفسهم وللحقيقة لجوؤهم إلى الجدل بالباطل والاستهزاء محاولين طمس الحقائق القرآنية الساطعة: [ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا].

١٢ ـ قد يعجل الله العذاب للظالمين في الدنيا [وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا].

١٣ ـ في قصة موسى والخضر عليهما السلام اندفع موسى معترضاً على الخضر إذ خرق السفينة وقتل الغلام ظاناً أنه قد أتىٰ عملين ظالمين:

[لقد جئت شيئاً نكرا] ثم تبين أن الخضر لم يكن ظالماً بل كان على حق.

١٤ ـ كان ذو القرنين عادلا حين أعلن أنه سيعذب الظالمين من رعيته، وسوف يحسن إلى المؤمنين الصالحين. كما أنه بنى السد الأعظم ليمنع ظلم يأجوج ومأجوج لجيرانهم.

الدين تربيـة للانسان وتنمية لقدراته الفطرية، العقلية والنفسية والجسمية، وهو تنقية لنفسه من الانحراف عن صراط الفطرة: [ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها] (الشمس ٧ ـ ٩)، [فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى] (النازعات ـ ٣٧ ـ ٤١).

وقد حوت سورة الكهف مبادىء تربوية هامة تفيد الآباء في تربية أولادهم، والمعلمين في تربية تلاميذهم وتعليمهم.

المبدأ التربوي الأول:

إن أسلوب التعليم العقيم يقوم على شرح الحقيقة العلمية للطالب شرحاً نظرياً مباشراً، وهو أسلوب قليل الجدوى، باعث للملل في نفس الطالب، لأنه لا يثير عواطف الطالب، ولا يجعله طرفاً في المشكلة المطلوب حلها، فهو لا يشعر بهذه المشكلة أصلاً.

أمـا الأسلوب النـاجح المجدي في التربية والتعليم فهو أن تضع الطالب أمام المشكلة وجهاً لوجه ثم تطالبه بحلها، ثم لا تحلها له إلا بعد أن تستثير تفكيره وحواسه وعواطفه. وحينئذ تكون الأفكار العلمية أشد رسوخاً في نفسه.

وبمعنى آخر، اذا أردت أن تعلم طفلك السباحة، فألقه في الماء ـ بعد اتخـاذ الاحتيـاطات اللازمـة طبعاً ـ ودعه يجابه المشكلة بعضلاته وحـواسـه، ثم قدم له المساعده والتعليم. وهذا هو بالضبط ما فعله الخضر بموسى عليهما السلام. إذ خرق الخضر السفينة وقتل الغلام

البريء ودعم الجدار المتداعي، مستثيراً بذلك عواطف موسى ومحركاً عقله وحواسه ليجد تفسيراً للمشاكل الغريبة التي جعله يجابهها وجهاً لوجه. ولما لم يستطع موسى تفسير هذه المشاكل أخذ الخضر يفسرله غوامضها وحكمتها. وبذلك كان تعلم موسى لها أرسخ وأكمل.

وهذه جولة في سورة الكهف أقوم بها مبيناً المواطن التي ورد فيها هذا المبدأ التربوي الهام:

أ ـ عندما طلب المشركون الى الرسول (ﷺ) أن يطرد فقراء المؤمنين من مجلسه كشرط لحضورهم مجلسه واستماعهم الى دعوته (ﷺ)، ترك الله رسوله يفكر في القضية بنفسه: هل يطرد فقراء المؤمنين من مجلسه طمعاً في حضور وجهاء المشركين وتهيؤ الفرصة أمامهم للهداية الى الدين، وبذلك يكسب الى جانبه هؤلاء الوجهاء الأقوياء؟

أم أن الأمل في هدايتهم ضعيف لا يسوّغ إهانة المؤمنين الطيبين بطردهم من مجلسه؟

إنها مشكلة حقيقية ترك الله رسوله يواجهها محاولاً إيجاد الحل الصحيح لها، لقد أثارت المشكلة عواطف الرسول (ﷺ) وتفكيره، وبعد أن بلغت المشكلة أدق مراحلها، وأثارت كل ما يمكن أن تثيره في نفس الرسول (ﷺ)، نزل الوحي الإلهي مقدماً الحل الصحيح للمشكلة: [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه].

ب ـ ورد في سبب نزول السورة أن المشركين ـ بتعليم من اليهود ـ سألوا الرسول، بغرض معرفة صدق نبوّته، أن يخبرهم عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القـرنـين، وعن الروح. فقال لهم الرسول: «غداً أخبركم» ولم يقل «إن شاء الله» مرجّحاً أن الوحي لا بدّ أن ينزل عليه في الغد فيسأله عما سأل عنه المشركون.

لكن الوحي لم ينزل في الغد، بل انقطع خمس عشرة ليلة، أصاب

فيها الرسول ما أصابه من الهمّ، فقد رآه المشركون قد أخلف وعده باخبارهم في الغد عما سألوه مما أثار شماتتهم فيه.

لقد ترك الله رسوله يواجه مشكلة صعبة. تركه يتساءل: لماذا انقطع الوحي عنه بعد نزوله عليه نزولاً متواصلا؟ لقد أثارت المشكلة تفكيره وعواطفه خمس عشرة ليلة. وبعد تلك الإثارة نزل جبريل (ع) يبيّن سبب انقطاع الوحي عنه (ﷺ)، معلماً الرسول الكريم ما لم يكن يعلم، قائلاً له: [ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله].

إن التعليم بهذا الأسلوب أوقع في نفسه (ﷺ) وأرسخ. وكان من الممكن أن ينزل عليه الوحي قبل نسيان قول «إن شاء الله» معلماً إياه أن يذكر هذا القول لأي عمل يريد أن يفعله في المستقبل، لكن وقع ذلك في نفسه لن يكون كوقع أسلوب التعليم عن طريق الوقوع في المشكلة وإثارة العواطف.

حـ ـ لقد أعطى الله صاحب الجنّتين رزقاً وافراً من نخيل واعناب ونهر ومـال ورجال، فكفر بنعمة الله ولم يشكره عليها. وقيّض الله له رجلاً مؤمناً صالحاً حاول هدايته إلى سبيل الحق وصرفه عن طريق الكفر والضـلال. ولم يكن يملك سوى أسلوب النصـح العـادي: [قـال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟؟].

لكن هذا الأسلوب لم يُجْدِ نفعاً في ردع الرجل عن غيّه، فأصّر على كفره. وحينئذ قضى الله أن يردّه عن طغيانه بالأسلوب المثير للعواطف، وأن يلقّنه درساً لا ينساه، فدمّر له ثماره التي كان يعتز بها ويركن إليها تدميراً مفاجئاً أصابه بالذهول، أثار عواطفه وتفكيره كله، ألهب حواسّه كلها: هل ما يراه من دمار مزروعاته حقيقة أم وهم؟ هل أشجاره وثماره التي كان يراها بأم عينه تملأ البستان منذ بضع ساعات فقط، والتي

كان منذ دقائق يتمتع بالتهام ماً شاء منها ـ هل هي فعلاً قد دُمّرت؟ أم هو في منام مخيف، في كابوس؟.

حينئذ فقط أفاق من سكرة كفره وطغيانه واستكباره، وعلم أن الله قد دمّر له أمواله بسبب ضلاله الشنيع: [فأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا].

د ـ في قصة آدم وإبليس والشجرة، نهى الله آدم (عليه السلام) عن الأكل من الشجرة وحذّره من سوء العاقبة إذا هو أكل منها،قائلاً له ولزوجه: [ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين]. كما حذّره من عداوة ابليس قائلًا: [إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجّنكما من الجنة فتشقى].

لكن هذا التحذير النظري ـ لحكمة يعلمها الله تعالى ـ لم يردع آدم عن الوقوع في المعصية، ولم يجعله يعي تمام الوعي عاقبة الخطيئة أو يقدّر نتائجها حق قدرها، إلّا بعد أن وقع في هوّة العصيان وذاق مرارة الحرمان من الجنة، وعانى آلام الإهباط إلى الأرض.

حينئذ فقط علم ما لم يكن يعلم، فلجأ إلى الله هو وزوجه ضارعَيْن طالبـين التـوبـة والغفران: [قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين].

المبدأ التربوي الثاني:

كأن السورة الكريمة، إذ أوردت قصة سجود الملائكة لآدم ـ تشير الى مبدأ تربوي هام آخر فإن الله تعالى لم يأمر الملائكة بالسجود لآدم إلّا بعـد أن أقنعهم إقنـاعاً واقعياً بأنه يفوقهم علماً، فهو جدير بأن يسجـدوا له: [وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا

ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم قال الم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض؟].

لقد كان الله تعالى مستطيعاً أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم دون أن يبّين لهم فضله عليهم في العلم، وكان لا بدّ للملائكة أن يطيعوا أمر ربهم ويسجدوا لآدم، فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

لكن ذلك درس لنا نحن البشر، وتوجيه للآباء والمعلمين، أن لا يأمروا أطفالهم بفعل شيء إلّا بعد أن يقنعوهم بأن هذا الشيء حق وعدل وخير ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً.

ومقال ذلك: قبل أن تأمر طفلك بقول الصدق وترك الكذب، عليك أن تقنعه بذلك، فتبيّن له، بذكر قصة أو حادثة يعرفها ـ قيمة الصدق وضرر الكذب.

وقبل أن تنهاه عن التدخين، أقنعه بضرره. أما إذا نهيته عن التدخين، وكنت أنت من المدخنين، فإن ذلك لن يقنعه بالابتعاد عن التدخين، وكيف يقتنع بصدق قولك وأنت أول المخالفين له؟؟

هذا هو المبدأ: إقناع الطفل بالأمر أو النهي قبل توجيههما إليه.

المبدأ التربوي الثالث:

إن آفة المدنيّة الحديثة انها تقدمت تقدماً هائلاً في العلم لكنها تأخرت في الأخلاق، فاختل توازن الانسان النفسي والحضاري. أنتج الإنسان القنابل النووية وهو فاقد للرحمة فدمّر المدن اليابانية... ولا ندري إلى ماذا يؤول أمر هذه الأرض اذا فجر الانسان المستودعات النووية التي تملأ الأرض...

لقد أشارت سورة الكهف من طرف خفي إلى وجوب حفظ التوازن بين العلم والأخلاق في نفس الإنسان وذلك حينما ذكرت أن الخضر عليه السلام كان يجمع بين العلم والرحمة التي هي قمة الأخلاق، فقالت: [فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما].

وقد ذكرت الآية الرحمة قبل العلم لتدل على أن الأخلاق أهم من العلم وإن كان لا بد من الأخلاق والعلم معاً.

قد يعجب القارىء الكريم لكثرة تكرار الاستشهاد بالآية الواحدة نفسها، أو بجزء منها، في الأبحاث السابقة جميعها. غير أن هذا العجب يبطل، وينقلب إلى إعجاب بإعجاز القرآن الكريم إذا عرف السبب، وهو أن كل آية من آياته تزخر بالمعاني الكثيرة الوافرة رغم قصرها، فتبلغ حداً معجزاً من الإيجاز. وكل معنى من هذه المعاني الغزيرة يمكن الاستشهاد به للدلالة على بحث من الأبحاث.

ولأضرب مثلاً على ذلك بالآية [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا. ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا].

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى أربعة أنواع من (المأوى): أولها وأهمها (الله) تعالى. فقوله «يدعون ربهم» يفيد أنهم اتخذوا (الله) مأوى لهم.

وقوله «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم» يفيد الحض على اتخاذ (الصالحين) مأوى للإنسان يصلونه بربه.

وقوله «واتبع هواه» يدل على اتخاذ الكافرين (الهوى) مأوى لهم. وقوله «زينة الحياة الدنيا» يشير إلى اتخاذ (متاع الحياة الدنيا) مأوى.

أما موضوع (الغروب والشروق والنور والظلام) فالآية نفسها تشير إليه بقولها «بالغداة والعشي»، كما أن (نور الإيمان) الذي في قلوب فقراء المؤمنين يقابله (ظلام الكفر) الذي يملأ قلوب المشركين.

وتدخل الآية في بحث (الرحمة) من حيث أمر الله رسوله بالحرص على مجالسة فقراء المؤمنين، وهو إكرام عظيم لهم وتطييب لخاطرهم ورحمة بالغة بهم وبمشاعرهم. كما تدخل في باب (العذاب والنقمة) لأن

رفض طلب المشركين بطرد فقراء المؤمنين هو إهانة للمشركين، أورثتهم بلا شك عذاباً نفسياً، وخاصة أنه اقترن بذمّهم ووصفهم بالغفلة واتباع الهوى، فهو صفعة أليمة لهم.

وتدخل الآية في بحث (الحجاب)، لأن الهوى المذكور فيها حجاب لقلوب المشركين عن ذكر الله.

وتشير الآية إلى بحث (الصبر) بقولها «واصبر نفسك».

وقد أتيت بالآية مثلاً على (الابتلاء التعليمي)، وكذلك على أحد (المبادىء التربوية) التي تدعو المربيّ إلى إيقاع تلميذه في المشكلة وتركه يجابهها ويحاول إيجاد حلها بنفسه.

ولنأخذ مثلاً آخر قصة صاحب الجنتين: فهي مثال الرجل اتخذ متاع الحياة الدنيا (مأوى) له قطعه عن الله، كما اتخذ (الهوى) مأوى له بعث في نفسه الغرور فاستكبر على صاحبه قائلاً له:

«أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفرا»، وكان الهوى (حجاباً) له عن رؤية حقيقة فناء الدنيا ومتاعها، فقال عن بساتينه وثماره: «ما أظن أن تبيد هذه أبدا»، فكان الهوى بذلك (مصدراً من مصادر الجهل) عنده.

أما صاحبه المؤمن، فقد استشهد بقوله «أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً» على من استعمل العقل (مصدراً من مصادر العلم) أوصله إلى معرفة الله تعالى.

كما أن نفس قوله هذا أفاد في بحث (المآوي المادية) التي يأوي إليها الإنسان بدءاً من صلب أبيه، ومروراً برحم أمه، وبرعايه امه بعد الولادة، ثم بالمآوي المحكمة التي تأوي إليها أعضاؤه الحسّاسة كالعين والقلب والكبد.

واستشهدت بقول المؤمن «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله» مثالاً لمن اتخذ (الله مأوى) بإرجاع كل شيء إلى مشيئته

تعالى وقوته.

واستشهدت بقوله تعالى «وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها» للاستدلال في بحث (النقمة والعذاب)، وقوله: «ياليتني لم أشرك بربي أحدا» للاستدلال على (الأسلوب التربوي) العملي الناجع الذي جعل الكافر يرجع عن كفره بإيقاعه في المشكلة ومجابهته لها.

ومن هنا بدت السورة بأسرها تزخر بالمواضيع العديدة التي ينازع أحدها الآخر في الظفر باسم السورة. فإن السورة ـ لكثرة ما ورد فيها من ذكر للابتلاء وأنواعه ـ يمكن تسميتها (سورة الابتلاء)، ولكثرة ما حوت من ذكر المآوي يمكن تسميتها (سورة المأوى)، ولكثرة ما ورد فيها من ذكر الصبر أو الرحمة أو الحجاب أو النور أو العدل أو الحق أو الظلم أو الظلام أو العلم أو الجهل.. يمكن تسميتها بأسم كل واحد من هذه المعاني لولا أن تسمية السور امر توقيفي.

إن هذه المعاني خيوط زاهية الألوان قد نسجت لتكون هذا النسيج المتألق ذا الألوان والأشكال المتناسقة ـ ألا وهو سورة الكهف.

إن هذه المعاني تتلاقى في مخطط منظم قد حُبك على النحو التالي:

إن الله قد ابتلى الإنسان بعوامل ضعف هي افتقاره إلى الصبر والعلم وكثرة نسيانه وطغيان عواطفه وشهواته.

ومن هنا كان موضوع الابتلاء.

وهذا الابتلاء إما أن يؤثر في الإنسان التأثير السليم، فيقّدر الابتلاء حق قدره، ويقدّر نفسه حق قدرها، فيلجأ الى الله طالباً أن يمنحه الرحمة والعلم والنور والصبر والمغفرة، ويلجأ إلى كل ملجأ يوصله بالله تعالى كالقرآن والرسل والصالحين والعمل الصالح، فيأوي في النهاية إلى الجنة ونعيمها.

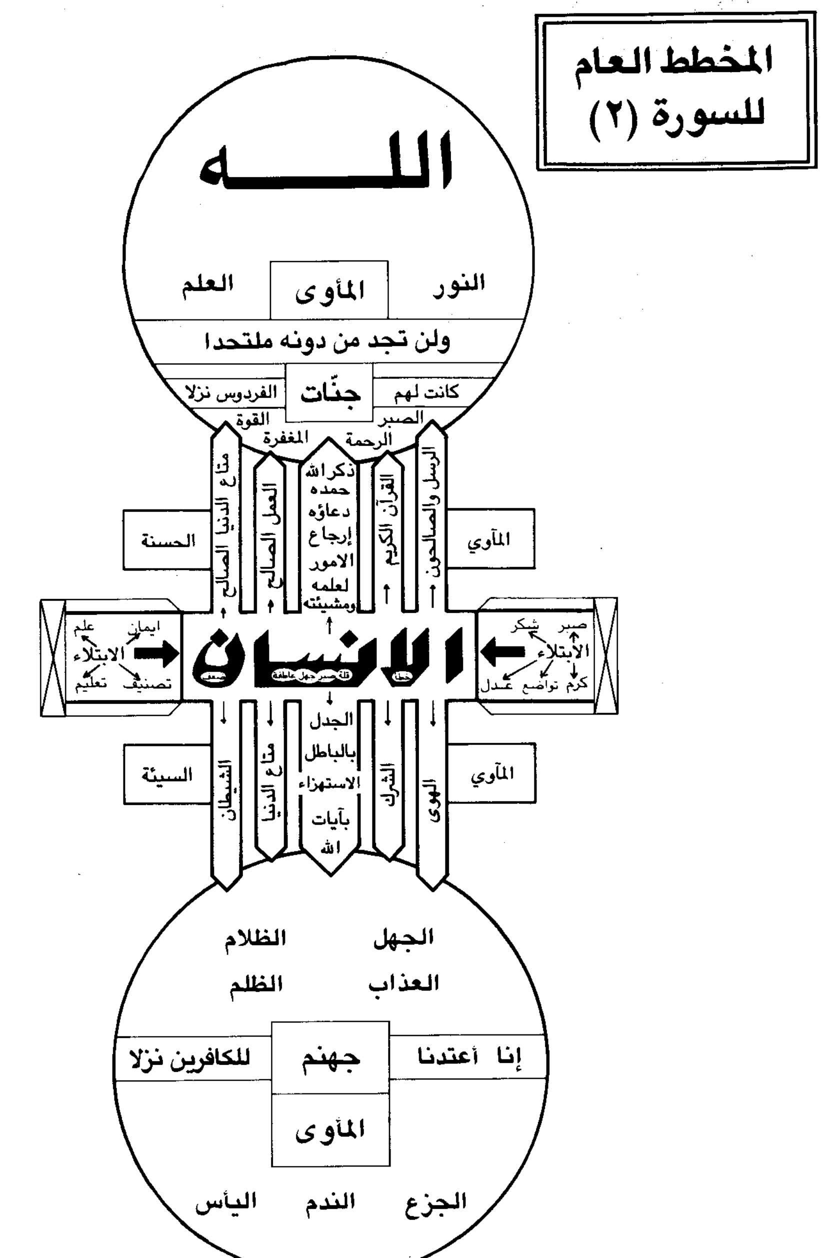
وإما أن يؤثر فيه الابتلاء التأثير غير السليم فيسيء تقدير الابتلاء

وتقدير نفسه، فيلجأ إلى الملاجىء السيئة كالهوى والشيطان والشرك ومتاع الحياة الدنيا، ويقع في الجهل والعذاب والنقمة والظلام والجزع والعقاب، ثم يأوي في النهاية إلى جهنم.

هذه هي الهندسة التي لاحظتُها في السورة، يوضحها الشكل الذي في الصفحة التالية.

وختاماً أرجو الله تعالى أن يغفر زلاتي، وهو أعلم بمعاني كتابه الكريم، وصلى الله على رسوله الأمين، والحمد لله رب العالمين.

المخطط العام للسورة (٢)



الفهــــرس

صدر عن دار عمار ودار الفيحاء

المصابيح في صلاة التراويح	للإمام السيوطي / تحقيق علي حسن عبدالحميد
ذم الحسد وأهله	ابن قيم الجوزية / تحقيق علي حسن عبدالحميد
خلاصة الكلام في خصائص بني الإسلام	علي حسن عبدالحميد
الهندسة الإلهية في سورة الكهف	عادل القلقيلي
الاسلام والحياة على الكواكب	يوسف عمرو
مسائل هامة من فتاوي ابن تيمية	الشيخ عبدالرؤوف العبوشي
أوهابية أم قرآن وسنة	الشيخ عبدالرؤوف العبوشي
رسالة أي المشددة	الشيخ عثمان النجدي الحنبلي / تحقيق الدكتور عبدالفتاح الحموز
مختصر منهاج القاصدين	ابن قدامة المقدسي / تحقيق علي حسن عبدالحميد
معجم الأفعال في القرآن الكريم	الدكتور عبدالفتاح الحموز

تحت الطبع

حكايات السيد جوعان للأطفال	شريف الراس
براعم الإيمان / شعر للأطفال	محمود النجار
المجموع اللفيف / معجم في المواد اللغوية التاريخية الحضارية	الدكتور ابراهيم السامرائي

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات
والوثائق الوطنية ١٢١/٣/١٩٨٦